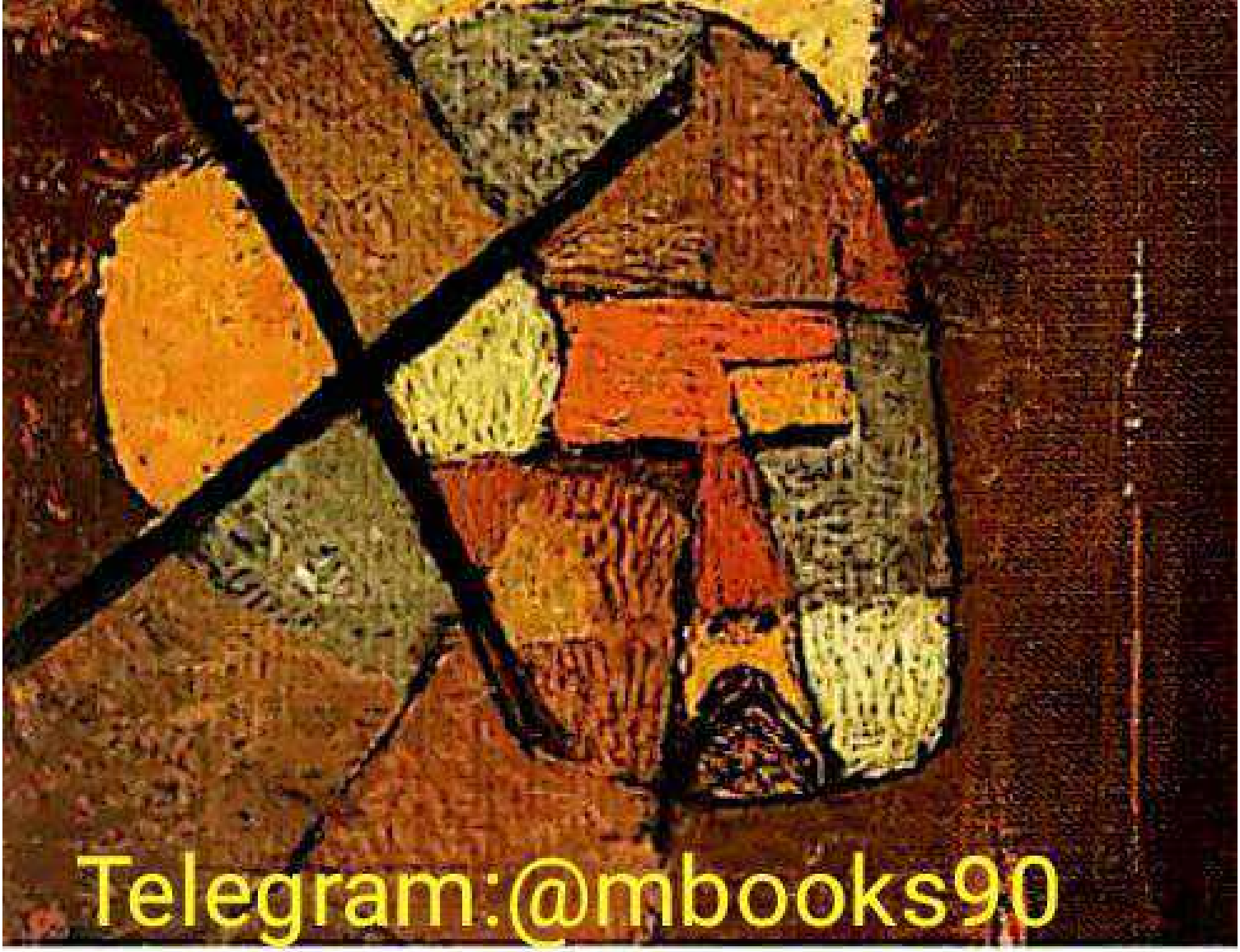

Telegram:@mbooks90

لوك راسل

الشر

رؤية فلسفية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لوك راسل

الشر
رؤية فلسفية

ترجمه عن الإنجليزية
محمد هوجلا-كلفت

Telegram:@mbooks90

الكرمة

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى: ٢٠٢٣

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
© Luke Russell 2020

Being Evil: A Philosophical Perspective was originally published in English in 2020. This translation is published by arrangement with Oxford University Press. Al-Karma Publishers is solely responsible for this translation from the original work and Oxford University Press shall have no liability for any errors, omissions or inaccuracies or ambiguities in such translation or for any losses caused by reliance thereon.

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
حقوق الترجمة © محمد هوجلا-كلفت

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي. نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

راسل، لوك.
الشر: رؤية فلسفية / لوك راسل؛ ترجمه عن الإنجليزية محمد هوجلا-كلفت - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.
١٦٠ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778638059
١- الفلسفة الأسترالية - الأخلاقيات.
أ- هوجلا-كلفت، محمد (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٦٣١٦ / ٢٠٢٢

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج
لوحة الغلاف: [illegible] من القائمة، بول كلي، ١٩٣٣

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

١

الشر ولغزه الفلسفي

هل الشر موجود؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أولًا أن نعرف ما معنى «شر». فيمَ تفكرون حين تسمعون هذه الكلمة؟ هل تفكرون في واحد من أشرار الشاشة والقصص: فولدمورت في سلسلة «هاري بوتر»، أو رامزي بولتون في «لعبة العروش»، أو الإمبراطور في «حرب النجوم»، تلك الشخصيات النمطية من النوع الذي يسعى بجد إلى إهلاك الآخرين، ويبهجه إنزال المعاناة بهم، ويقهقه بالضحك بينما يتفكر في أفاعيله الخبيثة؟ لعلكم تفكرون، بدلًا من ذلك، في الأبطال الخارقين المستدعين لاستخدام قوتهم في سبيل الخير، لا الشر. وقد يخطر ببالكم شعار شركة جوجل السابق:

لا تكن شريرًا.

حين يستعمل الناس كلمة «شر» بهذه السياقات يبدو أنهم يَلهون بالمبالغات المجازية. فالشر مخيف وسيئ، لكنه مخيف وسيئ بشكل مبالغ فيه كثيرًا إلى حد أن هناك شيئًا غير واقعي فيه، بل مضحك. الشر، بهذا المعنى، يترنح على حافة الكوميديا. إن شخصية الدكتور إيفل [الدكتور «شرير»] في سلسلة أفلام «أوستن باورز» تسقط من فوق هذه الحافة رأسًا. قد نقول: «يا للطفولية، ما أسخف أن يرعبنا «الشرررر»!». وإذا بقينا نحصر تركيزنا في أمثلة كهذه، قد نَخلُص إلى أنه لا مجال لمفهوم الشر في التفكير الجاد بشأن الأخلاق.

أما عند البعض، فإن كلمة «شر» تحمل مجموعة مختلفة من الدلالات الضمنية. فيكون للكلمة وقع ديني واضح مميز، لا صدى من عالم الخيال القصصي يوحي بانتمائها إليه. وإذا ألقينا نظرة على المسيحية، مثلًا، نجد قدرًا وافرًا من الإشارات التي تحيلنا إلى الشر. ففي جنة عدن أكل

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

آدم وحواء من الشجرة المحرمة فصارا عارفين للخير والشر. وحين يتلو المسيحيون «الصلاة الربّية» يكون دعاؤهم أن نجّنا من الشرير. ويوصينا توما الأكويني بفعل الخير واجتناب الشر. ويبدو من هذه الفكرة أن الشر هو، ببساطة، عكس الخير. أما في مواضع أخرى من المسيحية، فثمة - كما يبدو - تصور عن الشر أشد جذرية، وقد يصفه البعض بالغرائبي. تَرِد في الأناجيل إشارات متكررة إلى الشيطان، وهو كائن ذو قدرات فائقة للطبيعة، يُمرِض الناس، ويتسلل إلى قلوبهم فيجرهم إلى الخطيئة. فيصفه «سفر الرؤيا» بأنه على شكل تنين عظيم مشتبك مع الله في معركة كونية. ولغير المؤمنين منا بوجود الله أو بوجود الأرواح الخبيثة النجسة، فإن هذا التصور الخارق للطبيعة عن الشر يبدو فيه من التحليق في الخيالات قدر ما في ذلك الشر المعالَج في «هاري بوتر» أو «حرب النجوم». ويَظهر، علاوة على ذلك، أن من الخطر الاعتقاد في وجود هذا النوع من الشر الخارق للطبيعة في العالم الواقعي. فيجب ألا ننسى المحاكمات المرعبة للساحرات في القرن السابع عشر، والتي عُذّبت فيها آلاف البريئات وأُحرقن على العمود الخشبي، وكل ذلك بسبب معتقدات ضالة بالأرواح الشريرة والمَس واللّبس. والساسة المعاصرون الذين يتحدثون عن الشر والأشرار يُتهمون أحيانًا برعاية وإزكاء هذا النوع بالضبط من الجو الأخلاقي، ويُتهمون بشيطنة خصومهم، وبتهييج الغوغاء الغاضبين، وبالتحريض على الفتك. ويُجري بعض الفلاسفة مسحًا على هذا المشهد ويَخلصون إلى وجوب التشكك في وجود الشر. فالشر يبدو مفهومًا باليًا، وهو إلى ذلك، خطِر.

لكن، هل ينبغي علينا، استنادًا إلى تلك الأمثلة، الاندفاع إلى استنتاج مؤداه أن الشر غير حقيقي؟ وفقًا للفيلسوف لودفج فتجنشتاين، فإن سببًا شائعًا في الاعتلال الفلسفي يتمثل في «نظام غذائي أحادي، إذ يغذي المرء تفكيره بنوع واحد فقط من الأمثلة». انظروا في هذه المقارنة: إن أردتم فهم طبيعة السياسة ولكن بالتركيز حصرًا على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الديمقراطيات الليبرالية الغربية، فلن تستوعبوا السمات المميّزة للمَلَكيات والدول الشيوعية والدكتاتوريات وهلمّ جرًا. وبالمثل، فإن أردتم فهم طبيعة الموسيقى، فسيكون مضللًا أن تكتفوا بـ«الهيفي ميتال» وتتجاهلوا السمفونيات الكلاسيكية وقرع الطبول الأفريقية والجاز، وهلمّ جرًا، هكذا ببساطة. عند إجراء استقصاء فلسفي، تكون قدرتنا على تحصيل المعرفة أمثل عن طريق النظر في طيف متنوع من الحالات. وما يفعله من يأملون في فهم طبيعة الشر بالتركيز حصرًا على الفانتازيا، والخيال العلمي، والنصوص الدينية، هو أنهم يستهلكون هذا النوع بالضبط من النظام الغذائي الأحادي. وبدلًا من حصر تركيزنا على هذا النحو ينبغي علينا أن نعاين الطيف العريض من السيناريوهات الواقعية التي يميل الناس العاديون فيها إلى استعمال كلمة «شر». وهذه للأسف مهمة مقززة، ومن شأنها أن تبعث على الاشمئزاز واليأس. فمن الصعب أن نفكر بصفاء ذهني في الانتهاكات التي تعد الأبشع أخلاقيًا في التاريخ البشري. ومع ذلك، فإن هذا هو ما يلزمنا فعله إذا قُيّض لنا أن نتبين الماهية المفترضة للشر، ونتبين وجوده من عدمه. وبعد النظر في تلك الأمثلة قد يظل بعضنا يَخلُص إلى أن شيئًا من قبيل الشر لا وجود له. وقد يتبين أن المؤمنين بوجود الشر يقعون في نوع ما من الخلط، أو يبالغون، أو يغلطون بإسقاطهم على العالم شيئًا ليس موجودًا في الواقع. يجب علينا عدم الحكم في المسألة مسبقًا بالسلب أو الإيجاب. ولنبدأ بتسجيل ملاحظاتنا على ما يقوله الناس العاديون وما يعتقدونه بشأن الشر، وبعدها يمكننا أن ننتقل إلى السؤال عما إذا كانت ادعاءاتهم ومعتقداتهم صحيحة.

حين نمسح الطيف الواسع من حالات وصف الناس شيئًا بأنه شرير، يفاجئنا اكتشاف غريب. فنحن [في الإنجليزية] نستعمل كلمة «شرير» أحيانًا وببساطة كمرادف لكلمة «سيئ». وحين نفعل تنتفي الضرورة في أن تحمل كلمة «شر» أي معانٍ ضمنية تدل على الحَدِّية. فتمامًا كما يمكن

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

للأمور والأشياء السيئة أن تكون طفيفة أو تافهة، يجوز أن توجد شرور طفيفة أو تافهة، بهذا المعنى للكلمة. افترضوا أنكم تواجهون موقفًا يمثل معضلة، وتعين عليكم الاختيار من بين خيارين سيئين. من الجائز أن تبرروا قراركم النهائي قائلين إنكم اخترتم أهون الشرّين. حين تستعملون كلمة «شر» على هذا النحو، فأنتم لا تقولون ضمنًا إن الخيارين كلاهما حَدّي أو مروّع. ولا يعدو الأمر أنكم تعنون اختياركم أقل الشيئين سوءًا. وحين تُستعمل كلمة «شرير» كمجرد مرادف لكلمة «سيئ» جاز قولها في مآخذ أخلاقية يؤخذ عليها، من قبيل الاعتداءات البدنية سيئة القصد، ولكنها تجوز أيضًا في أشياء سيئة من دون أن تكون لاأخلاقية، ومنها ما يصيبك من ألم من جراء خبط إصبع قدمك. وإذا رجعنا إلى «قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية» للكشف عن أصل كلمة «evil» (شر؛ شرير)، لرأينا أنها تطورت من الكلمة الإنجليزية القديمة «yfel»، بمعنى «فوق» أو «زائد» أو «ما بعد» (وتفيد التجاوز والتعدي)، وأن كلمة «شرير» كانت تُستعمل ببساطة طوال قرون مرادفة لكلمات: «سيئ»، و«مزعج»، و«مؤلم».

وفي أيامنا هذه لو استعملنا كلمة «شرير» دون أن نعني شيئًا أكثر من «سيئ» قد يكون وقع الكلمة غريبًا. فمثلًا إذا أعطى ناقد تقييمًا سلبيًا لمطعم، فمن غير المرجح أن يصف الطعام فيه بأنه شرير. ومع ذلك، يمكننا العثور على سياقات يستمر فيها هذا الاستعمال القديم لكلمة «شرير» بمعنى «سيئ». وهذا الاستعمال سيكون مألوفًا لكل من قابل ما يسميه الفلاسفة واللاهوتيون «مشكلة الشر». و«مشكلة الشر» هي تحدٍّ يقوم أمام القائلين بوجود الله، المؤمنين بأن العالم خلقه إله كلي القدرة وكلي المعرفة وكلي الخير. فإذا كان الإله على هذه الصورة، وإذا كان يحبنا، فقد نتوقع من الإله أن يخلق عالمًا مليئًا بما هو خيّر، نعيش فيه حياة سعيدة سعادة كاملة. إلا أننا حين ننظر حولنا فليس بيدنا إلا أن نلاحظ احتواء العالم على كثير مما هو سيئ. معاناة جمة تنتج عما

يقترفه البشر، وبهذا قد يُعتقد أنها نتاج ما عملته أيدينا، لا يد الله. وحتى والحال كذلك، فإن قدرًا كبيرًا من المعاناة غير المستحقة سببه الأمراض، بما فيها السرطان والتهاب المفاصل والسل. والكوارث الطبيعية من قبيل الزلازل وأمواج التسونامي والفيضانات تحصد أرواح عدد لا حصر له من الأبرياء. يموت بعض الرُّضع ميتات مؤلمة، ويَفعم الأسى حياة آبائهم. كما أن المملكة الحيوانية غارقة في المعاناة من جراء الإصابات والافتراس والتضور جوعًا. وتتمثل المشكلة المسماة «مشكلة الشر» في كيف نصالح بين الإيمان بإله محسن وكلي القدرة وبين معرفتنا بأن العالم به سوء كثير، أو، كما نعبر عادة في هذا السياق، شر كثير. يعتقد أناس كثيرون أن «مشكلة الشر» تمنحنا سببًا وجيهًا للإلحاد. ووفقًا لهذه الرؤية فإن كثرة المعاناة غير المستحقة وانتشارها بمنزلة برهان قوي على أن العالم لم يخلقه إله قدير عليم كلي الإحسان. وقد حاول القائلون بوجود الله، ردًا على ذلك، أن يشرحوا كيف يتسنى لإله خيِّر أن يخلق عالمًا به كثير من السوء.

ليست غايتي من هذا الكتاب التصدي لمشكلة الشر اللاهوتية. ولا التركيز على هذا الاستعمال الواسع بشكل مفتوح لكلمة «شرير» لتعني ببساطة ما هو سيئ. وموضوعي ليس ما هو سيئ على نحو غير ذي صلة بالأخلاق، من قبيل آلام الأسنان وكسور العظام. ولا موضوعي هو السيئ أخلاقيًا لكن التافه أو الطفيف. فما أهدف إلى فهمه هو ما ليس سيئًا فحسب وإنما شرير، ما هو سيئ أو خاطئ أخلاقيًا بمعنى حدي. وأعتقد أن هذا هو مفهوم الشر المعمول به حين يتجادل الفلاسفة والمؤرخون والنفسانيون والصحفيون حول حقيقة وجود الشر من عدمه. ومن الجلي أننا بحاجة إلى قول المزيد حول ما يعنيه بالضبط أن ننعت شيئًا ما بالشر بهذا المعنى الحدي وذي النبرة الأخلاقية للكلمة. أعتقد أن بإمكاننا مَسْك مفهوم الشر مَسْكة أفضل عن طريق العودة إلى بحث الأشياء التي قد يقول عامة الناس إنها ليست سيئة فحسب وإنما شريرة. ولنبقِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في أذهاننا هذه المرة أن هناك نزاعات حامية حول ما إذا كان أي شيء شريرًا حقًا بهذا المعنى الأكثر حدية. فلا بد لتحليل فلسفي لمفهوم الشر من أن يفقه حقيقة أن بعض الأذكياء وحسَني الاطلاع يؤمنون بوجود الشر، بينما يؤمن البعض الآخر بأن الشر أسطورة أو خيالات خطرة. وإذا أردنا أن نميز مفهوم الشر المعمول به في هذه النزاعات، ينبغي لنا البدء بالتركيز على الأمثلة محل الخلاف. وفي أثناء تصدينا لهذه الأمثلة المتنوعة حاوِلوا إبقاء عقولكم منفتحة، وأنا أشجعكم على هذا. فبدلًا من الاندفاع إلى إصدار حكم، تمهلوا ومحصوا أفكاركم وخواطركم نفسها. فكروا في أوجه الشبه بين هذه الحالات، وانظروا إن كان بإمكانكم تمييز أي فروق مثيرة للاهتمام بينها. اسألوا أنفسكم إن كان بعضها أسوأ من الناحية الأخلاقية، وإن كان بعضها يشترك في ملمح مميَّز يُفرِدها باعتبارها آية في القبح.

لنبدأ بمعاينة الإرهاب، فمن بين مجموعات الأمثلة المأخوذة من واقع الحياة على ادعاءات الناس بشأن الشر، لعله المجموعة الأشد بداهة. كلنا نعرف جيدًا هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية على برجَي مركز التجارة العالمي بنيويورك، وفيها، وبدوافع تُغذيها العداوة السياسية تجاه الولايات المتحدة، قادت مجموعة من المتآمرين طائرتَي ركاب لتخترقا المبنيين الإداريَّين فقتلوا آلاف الأبرياء. من ينسى صور الطائرتين وهما ترتطمان بالبرجَين، والدخان المستفحل، والعاملين الهلعين إذ يفرون من مسرح الأحداث بينما الأجساد المرتمية تتساقط من الطوابق العليا؟ لو أن ثمة عملًا ذا دوافع سياسية يُعد عملًا يثير الرهبة، فهو هذا بالتأكيد. لم تكن أفعال هؤلاء الإرهابيين تجاوزات عادية يومية. فبالنسبة إلى مشاهدين مصدومين كُثر بدا هذا تجاوزًا على مستوى مختلف. وليس من المستغرب أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر جلبت إدانة أخلاقية بالغة القوة، وقد اختار بعض من أدانوها الحديث بلغة الخير والشر. في «خطاب حالة الاتحاد» لعام ٢٠٠٢ أعلن الرئيس جورج بوش الابن أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«الشر حقيقي ولا بد من الوقوف أمامه». كما أن بوش، متخطيًا حدود الحادي عشر من سبتمبر بمسافة بعيدة، وصف دول إيران والعراق وكوريا الشمالية بأنها «محور شر». آنذاك، كانت إشارات بوش المتكررة إلى الشر، في أعقاب هذه الهجمات، استقطابية، وتظل كذلك الآن. وما من شك في أن هذا يعود جزئيًا إلى الرؤية، الشائعة وسط منتقديه، والقائلة بأن بوش بسيط التفكير، ومحافظ ديني متشدد، ورئيس ذو توجهات صقرية خطرة. وقد يميل منتقدو حرب بوش اللاحقة على الإرهاب إلى شجب استعماله للغة الشر، تحديدًا لأنهم يرون هذه اللغة تعبيرًا عن الذهنية التي قادته إلى غزو العراق وأفغانستان. أما مؤيدو الرئيس والحرب على الإرهاب، على الناحية الأخرى من السياج السياسي، فقد حيَّوا بوش لإدانته الإرهابيين بأشد لهجة، ولأخذه موقفًا أخلاقيًا واضحًا لا لبس فيه.

أدى الجدال حول تصريحات بوش بشأن الحادي عشر من سبتمبر إلى صحوة في الاهتمام الفلسفي بمبحث الشر. فبغض النظر عن رأينا في القرارات السياسية اللاحقة للرئيس بوش، يدعونا الفلاسفة إلى التصدي لبعض الأسئلة الأخلاقية الأساسية بخصوص الحادي عشر من سبتمبر. هل ارتكب الإرهابيون أفعالًا شريرة في ذلك اليوم؟ أكان الإرهابيون أشرارًا؟ وأحد الأسباب المحتملة للإجابة نفيًا عن السؤالين هو الاعتقاد أن أفعال أولئك المُسمَّين «إرهابيين» لم تكن حتى خاطئة أخلاقيًا، ناهيك بأن تكون شريرة. قد نخلص إلى هذه النتيجة لو قبلنا الفكرة القائلة إن «من هو إرهابي عند واحد منا مناضل عند الآخر»، وبانعدام حقيقة موضوعية تخضع لها مسألة الصواب والخطأ. وإذا انعدم ما هو خاطئ أخلاقيًا، فلا معنى لإدانة هجمات الحادي عشر من سبتمبر على أساس شرها. وهناك طريقة أخرى لدعم الدعوى القائلة بأن أفعال الإرهابيين لم تكن خاطئة، وتتمثل هذه الطريقة في الادعاء أن المواطنين الأمريكيين كانوا يستحقون التعرض للهجمات والقتل نتيجة للسياسة

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

الخارجية الأمريكية الفاسدة أخلاقيًا. لكن هذه الادعاءات هي بدورها طبعًا استقطابية. كثير منا يعتقد أن منفذي هجمات الحادي عشر من سبتمبر ارتكبوا جريمة قتل جماعي لمدنيين أبرياء، وأن أفعالهم خاطئة أخلاقيًا بشكل واضح وموضوعي. أما التحدي الذي سأركز عليه فمصدره الفلاسفة المتفقون على أن أفعال إرهابيي الحادي عشر من سبتمبر خاطئة بوضوح وموضوعية، لكنهم يزعمون أن الإرهابيين لم يفعلوا شرًا. وسوف نرى في الفصول الأخيرة من هذا الكتاب بتفصيل أكبر أسباب تشكك هؤلاء الفلاسفة في الشر، وأسباب اعتراض آخرين عليهم. أما الآن، فلنكتفِ بوضع الحادي عشر من سبتمبر في أذهاننا كمثال خلافي مفتاحي.

لا يحدث الإرهاب فقط نتيجة مؤامرات مخطط لها بعناية، وإنما كذلك على مستوى أصغر. فكروا في الهجوم الإرهابي الذي قام به ديلان روف على رواد الكنيسة في تشارلستون، بولاية كارولاينا الجنوبية، في ٢٠١٥. حضر روف، وهو تفوقي أبيض حرَّكه دافع الرغبة في تأجيج حرب عرقية بين الأمريكيين السود والبيض، اجتماعًا لدراسة الكتاب المقدس في «كنيسة إيمانويل الأفريقية الميثودية الأسقفية»، حيث نفَّذ هجومًا مع سبق الإصرار والترصد، له دوافع سياسية، وتغذيه كراهيته لضحاياه. قتل تسعة أبرياء، مُطلِقًا عليهم النار من مسافة قريبة في حين تكوروا هم على الأرضية. فعل روف فعلته بمفرده، ولكنه على غرار إرهابيي الحادي عشر من سبتمبر، كانت له دوافع أيديولوجية. كان يعتقد اعتقادًا باطلًا أن أفعاله مبررة، ويشتهي ذيوع الصيت. وبينما انطرح ضحاياه مبعثرين من حوله قال روف لإحدى المترددات على الكنيسة إنه سيتركها حية ليمكنها إبلاغ العالم بما فعله، ولماذا فعله. هذه، بدورها، ليست حالة عادية من حالات اقتراف الخطأ. وقد أدانت كثرة من الناس ما فعله روف في ذلك اليوم مستعملين لغة الشر. وقالت ناجية من الهجوم، اسمها فيليشيا ساندرز، إن أعضاء الكنيسة كانوا قد رحبوا بانضمام روف إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

درس الكتاب المقدس، وإنه قبيل إطلاق النار «كان يجلس هناك ببساطة طوال الوقت، شريرًا، شريرًا، شريرًا غاية الشر».

تعيد جريمة روف صدى جريمة القتل الجماعي التي ارتكبها الإرهابي النرويجي أندِرس بهرنج بريفيك، والذي فجر في ٢٠١١ قنبلة قتلت تسعة أشخاص، ثم انتقل إلى جزيرة أوتويا، حيث تعقب تسعة وستين من صغار السن المشاركين في مخيم صيفي وقتلهم. أفاد بريفيك بأنه خطط هذه المذبحة ونفذها لأنه أراد لفت الانتباه إلى بيانه المعادي لليسار وللإسلام. وكما بقي روف فخورًا بفعلته مطمئنًا إلى تفوقه الأخلاقي، كذلك بقي بريفيك. وقد ادعى بعض المعلقين، كما ادعى محامي الدفاع عن بريفيك، أنه مختل وبالتالي غير مسؤول تمامًا عن أفعاله. لكن رئيسة الاستخبارات الداخلية النرويجية، يان كريستيانسن، اعترضت قائلة إن بريفيك شرير لا مختل.

وإلى جوار روف وبريفيك يصطف طابور طويل من الإرهابيين في أنحاء العالم ممن ارتكبوا فظائع باسم قضاياهم العزيزة على أنفسهم. فهناك أعضاء «جماعة التوحيد الوطنية» وهي الجماعة الإرهابية التي قتلت ٢٥٩ شخصًا في تفجيرات عيد الفصح في سريلانكا والتي طالت الكنائس والفنادق. وفي تلك السنة نفسها أذاع برنتون تارانت بثًا حيًا على الإنترنت للمذبحة التي نفذها في صفوف المصلين في مسجدَين في نيوزيلندا. وهناك سلمان رمضان العبيدي، منفذ التفجير الانتحاري الذي قتل ٢٢ من حضور حفل موسيقي في قاعة «مانشستر أرينا» في ٢٠١٧. وهناك أعضاء الخلية الداعشية في بروكسل التي نفذت مجزرة أسقطت ١٣٠ ضحية بباريس في ٢٠١٥، مطلقين نيران الرشاشات على المشاة ومحاصرين الكثير من ضحاياهم في «مسرح باتاكلان». وهناك أعضاء «لَشكَر طَيبَه» الذين عاثوا قتلًا في مومباي في ٢٠٠٨، وكان الضحايا على الأقل ١٦٤ من الأبرياء. وأخيرًا، لا ننسى الجماعة الإرهابية المتصدرة قائمة الجماعات الأكثر قتلًا في العالم، جماعة «بوكو حرام» النيجيرية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي قتلت عشرات الآلاف على مدى العقد الماضي.

هؤلاء ليسوا شخصيات كرتونية شريرة. ليسوا شخصيات قصصية مغرقة في الخيالات. فهم حقيقيون للغاية وشائعون للغاية. فهل هؤلاء الإرهابيون فاعلو شر؟ من المؤكد أن الرئيس بوش يعتقد أنهم كذلك، وجدير بالملاحظة أن هذا ليس حكمًا يخضع للتحزبات السياسية. فالرئيس باراك أوباما، مثلًا، يتفق مع بوش. وفي خطابه أمام «الأمم المتحدة» في ٢٠١٤، قال أوباما عن داعش: «لا مجال للتعقُّل ولا للتفاوض مع هذا الصنف من الشر». أما الرئيس دونالد ترامب فقد نعت الإرهابيين بـ«الأشرار الفشلة». وردًا على تفجيرات لندن في ٢٠٠٥، دعا رئيس الوزراء البريطاني توني بلير مواطنيه البريطانيين إلى مواجهة «أيديولوجيا الشر» الإرهابية، وهي الكلمات التي رددها بعد عام من ذلك رئيس الوزراء ديفيد كاميرون، والذي دعا إلى مقاومة «هذا التهديد الإرهابي الشرير». ماذا يعني هؤلاء الساسة في اعتقادكم عند استعمالهم لغة الشر فيما يتعلق بالإرهاب؟ هل توافقون على هذه الإدانة المشددة للأفعال المذكورة، أم أن هؤلاء الساسة أخطأوا في اعتقادكم؟ ولو كنتم تعتقدون فعلًا أن من الخطأ إدانة أفعال الإرهابيين بالشر، فما طبيعة هذا الخطأ؟

لننتقل من الإرهاب إلى المجموعة التالية من الأمثلة الخلافية، ألا وهي القتلة التسلسليون. فالخيارات هنا بدورها تكثر. بل لعل القتلة التسلسليين أشد إقلاقًا لسلامنا من الإرهابيين، بما أنهم لا يقتلون في سبيل تحقيق هدف سياسي، وإنما من أجل المتعة التي يجنونها بالقتل. الوصف التفصيلي لهذه الحالات قد يبدو زائدًا على الحاجة، ولكن لكي نقيمها أخلاقيًا، لا بد أن نلم ببعض التفاصيل. كثير من القتلة التسلسليين يقيدون حركة ضحاياهم ويعذبونهم لساعات، بل لأيام، قبل أن يقتلوهم، كما فعل القاتل دنس ريدر المعروف بالأحرف «بي تي كيه»، وهي الأحرف الأولى من الكلمات الإنجليزية التي تعني «اربط، عذب، اقتل»، والزوجان السفاحان فرد وروزماري وست. وكثير من القتلة

التسلسليين ينهون حياة ضحاياهم في سياق اعتداء جنسي بشع. كان هذا الدافع الجنسي حاضرًا في الحالات الخاصة بتيد بندي، وجون واين جاسي، وفرِتز هارمان المسمى جزار هانوفر، الذي قتل ما لا يقل عن أربع وعشرين ضحية نهش حناجرهم بأسنانه. وبعض القتلة الساديين يستهدفون الأطفال الصغار على وجه التحديد. فإيان برادي ومايرا هِندلي، مثلًا، اغتصبا وقتلا ما لا يقل عن خمسة أطفال في مانشستر وما حولها في عقد ١٩٦٠، قبل دفن جثامينهم في الأراضي السبخة. أغلب القتلة التسلسليين يعملون سرًّا، مع أن بعضهم، بمن في ذلك ريدر، وديفيد بيركوفيتز القاتل الشهير بابن سام، وقناصا بلتواي، بحثوا عن الشهرة وحاولوا لفت الأنظار عن طريق إرسال رسائل استهزائية إلى الشرطة. وكثير من القتلة التسلسليين عصاة، يرتكبون الفظاعات عامًا بعد عام، ويستمرون حتى عند اتضاح قرب وقوعهم في أيدي السلطات.

يثير الغثيان حقًّا الاطلاع على مزيد من تفاصيل الأفعال التي ارتكبها القتلة التسلسليون. وكثير من هذه الجرائم من البشاعة بحيث لا تبعث فينا الاشمئزاز وحده، وإنما تُشعِرنا بالضياع وتُعجز عقولنا باستحالة فهمها. وهكذا فمن المرجح أن يقول الناس إن القتلة التسلسليين، في مقابل الإرهابيين ذوي الدوافع السياسية، هم مرضى عقليون أكثر منهم أشرارًا. وهذه الفكرة جديرة بالفحص. فإذا كان القاتل «سَيكوباتيًا» (مضطربًا عقليًا)، مثلًا، فهل يعفيه هذا من اللوم؟ هل المضطربون عقليًا خطرون لكن غير مسؤولين أخلاقيًا عما يفعلون ومن ثم ليسوا أشرارًا؟ الإجابة المختصرة هي «ليس بهذه السرعة!» فالمرض العقلي نفسه، من حيث التصنيف، واسع بشدة، وتفرُّعه إلى أمراض عقلية محددة يبلغ حدًّا مزعجًا من الالتباس. ومع ذلك فإن أغلب من يعانون مرضًا عقليًا مسؤولون قانونيًا وأخلاقيًا عن أفعالهم. وعلاوة على ذلك، فبينما، وفق النمط النموذجي، يُظهِر القتلة التسلسليون المضطربون عقليًا بعض التشوهات العقلية فيما يتعلق بالتعاطف ومهارات التفكير المنطقي،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

من المبالغة أن نقول إنهم حمقى طائشون لا يعرفون ما يفعلون. فكثير من القتلة التسلسليين يخططون لفعلاتهم تخطيطًا جيدًا مسبقًا، ويفهمون بوضوح حقيقة أنهم يؤذون الآخرين، ويخفون آثارهم بعناية لتجنب رصدهم. من الجائز جدًا أن يكون القتلة التسلسليون مرضى، بمعنى من معاني تلك الكلمة، لكن هذا لا يعني ضمنًا أنهم معذورون. والحقيقة أن من الشائع استعمال الصحفيين وسواهم نعت «شرير» في وصف القتلة التسلسليين وأفعالهم. وقد قال بولي نلسن محامي تيد بندي إن موكله كان «التعريف الأمثل للشر عديم القلب». وقد أطلقت الصحافة على مايرا هندلي لقب «المرأة الأشرّ في بريطانيا». فهل يُشكل هؤلاء القتلة التسلسليون وأفعالهم المروعة وغير المفهومة في الظاهر أمثلة الشر المركزية؟ أم أننا نغرق في خيالات لا صلة لها بالواقع حين ندعوهم أشرارًا؟

الجرائم التي يرتكبها قتلة تسلسليون ساديون قد تكون الأشد إثارة للاشمئزاز، وذات الطابع الشخصي الأقوى بين سائر الجرائم، أما الحجم العددي الصِّرف للجُرم المرتكب فيلزمنا بأن ندير أنظارنا إلى الحكام الدكتاتوريين ومجرمي الحرب، ومن يُسخرون الآلة العسكرية وجهاز الدولة لأغراض القتل الجماعي. وفي زماننا هذا المتصف بالاستقطاب المتزايد للسجال العام، انصب كثير من الاهتمام على قانون جودوين. وردت الصيغة الأصلية لهذا المسمى قانونًا على هذا النحو: «كلما طالت مناقشة على الإنترنت، اقتربت احتمالية عقد مقارنة يُذكَر فيها هتلر من الرقم ١». وفي الغالب تتحور هذه الصيغة إلى شيء من هذا القبيل: أيًا يكن الموضوع المطروح للنقاش، فإن أول من يَذكُر هتلر يخسر المناقشة. وتصوير هذا على أنه قانون بهذا المعنى حقًا قد يروق لمحبي تسجيل النقاط البلاغية المتلهفين إلى بلوغ لحظة «أوقعتُ بك!»، لكنه أضعف من أن يصمد للتمحيص النقدي. فعند الاشتباك مع مبحث الشر، يكون أمرًا غير مسؤول فكريًا ألَّا نذكر هتلر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تُستعمل كلمة «شر» على الدوام لوصف الفظائع النازية. أدت النزعة التوسعية العسكرية لدى هتلر مباشرة إلى الحرب العالمية الثانية، والتي قُتل فيها على وجه التقريب ٦٠ مليون إنسان، ما يُعادل ٣ بالمائة من سكان العالم. إن مقدار الهلاك والدمار والمعاناة الواقعة مسؤوليته على هتلر يتضاءل بجواره وبفارق هائل ما تسبب فيه أشد القتلة التسلسليين جدًا واجتهادًا. ومن بين كل أحداث الحرب العالمية الثانية فإن الهولوكوست هو الذي يجذب أكثر الانتباه بوصفه موضع الشر. فاليهود الذين كانوا قد عاشوا بسلام إلى جانب جيرانهم في ألمانيا وبولندا والمجر جُردوا من أملاكهم تجريدًا منهجيًا، وأرسلوا إلى الجيتوات، وشُحنوا في عربات مواشي السكك الحديدية، ونُقلوا إلى معسكرات أُجبروا فيها على العمل الشاق حتى الموت أو قُتلوا بالغاز السام. كانت تلك إبادة بدم بارد وعلى مستوى عمليات الصناعة الكبرى. تفصح الصور الفوتوغرافية للأجساد الضامرة المكوَّمة خارج المحارق النازية عن حقيقة مروعة، ليست قصة خرافية أو خيالات. ما حدث في هذه المعسكرات، جرائم القتل تلك المعدودة بالملايين والملايين، هو أمر خاطئ أخلاقيًا، لكن التعبير عن ذلك بتلك الطريقة يبدو تهوينًا للأمر. لم يكن خاطئًا أخلاقيًا فقط، وإنما شرير، أو هكذا يقول بعض الناجين، وكذلك بعض الدارسين الذين كتبوا عن الهولوكوست. والقادة السياسيون والعسكريون الذين دبروا هذا الفصل الأشد خزيًا في التاريخ البشري - هتلر وهِملر وأيخمان، بين آخرين - لم يكونوا فاسدين أخلاقيًا فحسب. فمن الصعب مقاومة إغراء وصفهم بالأشرار.

وبينما يبدو الهولوكوست مثالًا للشر غير خلافي نسبيًا، تنشأ التعقيدات حين نبدأ في تقييم أناس بعينهم عملوا في النظام النازي تقييمًا أخلاقيًا. يختلف المؤرخان كريستوفر براونج ودانييل جولدهاجن حول إذا ما كان «الألمان العاديون» الذين شاركوا في «الأينزاتسجروبن» - فرق الموت النازية - حرَّكتهم الكراهية النابعة من معاداة السامية، أم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنهم لم يُبيِّتوا سوء قصد لضحاياهم، وكانوا يتبعون الأوامر فحسب. وفي هذا تكرار لصدى خلاف أسبق حول دعوى حنة آرنت بأن مجرم الحرب أدولف أيخمان نفسه لم يكن وحشًا ساديًا ومعاديًا للسامية، وإنما ببساطة رجل عديم التفكير أراد تأدية عمله كما يجب. ومحاكمة أيخمان، وفقًا لآرنت، تكشف عن ابتذالية الشر. وكما سوف نرى في الفصل الرابع، فإن في حكم المؤكد أن آرنت أساءت قراءة دوافع أيخمان وشخصيته. ومع ذلك، وافق مفكرون كثيرون على ترجيح آرنت أن بعض فاعلي الشر هم بيروقراطيون مُتَّزنون ومطيعون، أكثر منهم راغبي لذة ساديين وسيئي القصد عامدين. وتنشأ أسئلة أخلاقية معقدة إضافية فيما يخص أولئك الضالعين بدرجة ما في فظائع الهولوكوست. ويشمل هؤلاء المواطنين العاديين العالِمين بما يحدث من دون أن يحركوا ساكنًا لمساعدة الضحايا، وكذلك نزلاء معسكرات التجميع الذين ساعدوا في إدارة المعسكرات لقاء بعض الحسنات من الحرس.

إن اقتراف الخطأ الحدي في زمن الحرب يثير أسئلة عويصة عن الإكراه، وعن الحماية المشروعة للذات، وعن المقاومة الأخلاقية وتكلفتها. ومع ذلك، هناك وفرة من الأمثلة المستقاة من الهولوكوست وغيرها من الفظائع على متورطين في تنفيذ عمليات لم يكونوا مكرَهين، بل بحثوا عن فرصة لقتل الأبرياء قتلًا اتخذ شكل موجات فتك منسقة. في عقد ١٩٧٠ في كمبوديا كان الخمير الحمر يختطفون ويعذبون ويقتلون كل من عَدُّوه عدوًا للدولة، بما في ذلك الأقليات الإثنية و«المثقفون»، أي الحاصلون على تعليم، ومرتدو النظارات. تُقدر حصيلة الموت الإجمالية في كمبوديا بـ١.٥ مليون إلى ٣ ملايين. وفي رواندا في ١٩٩٤ وصل الغليان تحت السطح في شكل صراع سياسي إلى الفوران في شكل إبادة. انتفض الهوتو وهم الأغلبية وذبَحوا ما يصل إلى مليون من التوتسي في غضون ١٠٠ يوم. أغلب الضحايا حُشُّوا بالمِحَشَّات حتى الموت. كثيرون لقوا مصرعهم على أيدي جيرانهم. استخدم سلاح الاغتصاب في الحرب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استخدامًا منهجيًا. هذه الفظائع ليست مروعة فحسب وإنما كاسحة من حيث مداها وحجمها. وحتى لو حصرنا أنفسنا في نطاق القرن العشرين، بوسعنا أن نضيف ستالين وماو إلى قائمة القادة المسؤولين عن إزهاق أرواح عدة ملايين. يستحق منا هؤلاء الطغاة ومجرمو الحرب أشد الإدانة، ولهذا يوصفون على الدوام بأنهم «أشرار»، الكلمة التي وصفها كريستوفر هتشنز بأنها «أفضل لفظ مبالغة سلبي في حوزتنا».

لقد التقينا بثلاثة أنواع من الاقتراف الحدي للخطأ يصفها عامة الناس بأنها شريرة: الإرهاب، وجرائم القتل التسلسلي، وجرائم الحرب الإبادية. وهناك حاجة إلى أخذ هذه الحالات بجدية. فلا يمكننا أن نشير إلى أمثلة على أفعال شر مزعومة في الخيال العلمي أو الفانتازيا أو النصوص الدينية، ثم ندعي ببساطة، لأن هذه أشياء خيالية، ألّا وجود للشر في عالم الواقع. وأولئك المتشككون في وجود الشر لا بد لهم كذلك أن يتحلوا بالإرادة اللازمة لكي يشيروا إلى الأعمال الحقيقية من إرهاب وقتل تسلسلي وجرائم حرب ويشرحوا ما الذي لا يجعل أيًا منها يدخل في عِداد الشر. كثير من الفلاسفة المؤمنين بوجود الشر لا يؤمنون بالشر الخارق للطبيعة، بل لا يؤمنون بوجود عالم وراء الطبيعة. وعوضًا عن ذلك فإن هؤلاء الفلاسفة يعتقدون أن صفة الشر مثال واحد على الخصائص الأخلاقية من بين خصائص أخلاقية أخرى كثيرة، إيجابية أو سلبية، يمكن أن تملكها الأفعال ويملكها الأشخاص. فعلى سبيل المثال، قد يملك فعل من الأفعال خاصية الظلم، أو الكرم، أو الإباحة، أو استحقاق اللوم. وقد يملك شخص خاصية الحنان، أو القسوة، أو الغش، أو العدل. عندما نريد تبين ماهية القسوة، أو ماهية الحنان، بدلًا من الانطلاق في تنظير ما ورائي كبير ومنفلت، نحتاج إلى فحص أمثلة على أشياء من النوع النمطي المدعو قاسيًا أو حنونًا. وينطبق الأمر نفسه على الشر. (بينما نفكر في أهمية التركيز على العالم الحقيقي، تجدر الإشارة إلى أن الغالبية العظمى من مقترفي الخطأ الحديّين عبر التاريخ هم من

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

الرجال. وسوف يطغى استعمالي لصيغ المذكر عند الإشارة إلى من يُحكم عليه بأنه فاعل للشر، بغرض أن تعكس هذه الصيغ تلك الحقيقة. وليس المقصود أن يعني هذا ضمنًا كون جميع فاعلي الشر من الرجال).

بنقل تركيزنا من الحالات الخيالية إلى أمثلة اقتراف الخطأ الواقعية الأشد إرباكًا، فإننا نرفع مستوى التحدي في السجال حول الشر. لكن هذه النقلة لا تحسم في حد ذاتها إجابة سؤال وجود الشر من عدمه، ولا سؤال ما يُفترض أنه الشر. افترضوا أننا أشرنا بالفعل إلى أمثلة حقيقية على الإرهاب أو القتل التسلسلي وأدنّاها بالشر. فما الذي نقوله بهذا عنها؟ هل ما نقوله هو أنها خاطئة أخلاقيًا؟ أنها خاطئة جدًا؟ هل تشترك في ملمح ما خاص يميزها عن الأخطاء غير الشريرة، العادية؟ وإن كان الأمر كذلك، فأي ملمح؟ هل تبث الأفعال الشريرة، على خلاف الأخطاء العادية، نوعًا معينًا من ردود الفعل، الرعب ربما، أو عدم الفهم، عند الناظرين؟ هل تأتي الأفعال الشريرة، على خلاف الأخطاء العادية، من نوع مميز من الدوافع؟ يجب علينا أيضًا الإجابة عن مجموعة متوازية من الأسئلة عن الأشرار. لا بأس أبدًا بأن نشير إلى هتلر وتيد بندي ونقول «إنهما شريران»، ولكن إذا أدنّاهما على هذا النحو، فما الذي يعنيه قولنا هذا عنهما؟ ما الشيء المشترك بين الأشرار الذي يميزهم عن الأشخاص العاديين، غير الأشرار؟ وهل للشرير توصيف تعريفي نفسي مختلف جذريًا بالمقارنة مع بقيتنا؟ هل وُلِد الأشرار أشرارًا؟ هل يمكن إصلاح الأشرار؟

هذه هي الأسئلة التي يلزم علينا نحن الفلاسفة التصدي لها حين نشرع في وصف الشر. وحتى فيما بين الفلاسفة المعتقدين في وجود الشر، هناك خلاف كثير حول ما يفترض بالشر أن يكونه بالضبط، وبشأن حدوده الفاصلة. لقد رأينا أن أمثلة الشر المركزية المثبتة شكليًا تشمل الإرهاب والقتل التسلسلي وجرائم الحرب الإبادية. وتتوفر الأركان التالية في كل من هذه الأمثلة المركزية:

- الأفعال موضع البحث خاطئة أخلاقيًا.

١٩ / ١١٢٣ الشر وفكرة الفلسفي Page
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الخاطئون يحق اتهامهم أو لومهم على ما فعلوه.
- كانت هذه أعمال قتل أو تعذيب عمدي.
- خلّفت كل حالة ضحايا أبرياء كثرًا.

وعندما نأتي إلى تعيين الحدود بين ما هو شرير وما هو سيئ فحسب، من المهم ألّا نكتفي بالتركيز على الأمثلة المركزية، وإنما أن نقارنها بتنويعة من الأمثلة الهامشية أو الإشكالية، وأن نقارنها أخيرًا بأفعال بعيدة بوضوح عن أن تكون شريرة، وبفاعلين أقل بوضوح عن الاتصاف بالشر. يمكننا أن نستكشف الهامش بأن نبحث حالات اقتراف خطأ حدي ينقصه ركن أو أكثر من الأركان المتوفرة في الأمثلة المركزية. فمنفذو الفعل في الأمثلة المركزية، على سبيل المثال، يحق لومهم بداهة على أفعالهم، لكن أحقية اتهام من ألحقوا ضررًا بالغًا بآخرين لا تكون بهذه السلاسة أحيانًا. فقتل جيمس بلجر ابن الثلاثة أعوام على يد روبرت تومسون وجون فينابلس، البالغين عشرة أعوام، يوفر لنا مثالًا إيضاحيًا مأساويًا على هذا النوع من الحالات. فبينما وصف كثيرون في الصحافة القاتلَين بالشريرَين، رفض آخرون هذه التسمية، مدعين أن تومسون وفينابلس كانا مجرد طفلَين أيضًا، ومن هنا فليسا مسؤولَين بالمعنى المضبوط عما فعلاه. والرأي منقسم على نحو مماثل حول لندي إنجلاند، الجندية الأمريكية المشاركة في تعذيب سجناء عراقيين وإذلالهم في سجن أبو غريب. يرى البعض إنجلاند بوصفها مثالًا واضحًا على فاعل الشر، لكن آخرين يعتقدون أن زعيم عصابة الجلادين، تشارلز جرانر، أكرهها، ومن هنا فإن مسؤوليتها عن أفعالها أقل من أن تكون كاملة.

يمكننا استخراج مزيد من الأمثلة الهامشية بالتركيز على سمات أخرى حاضرة في الأمثلة الأساسية. في أمثلة الشر المركزية المثبتة شكليًا يعذب المنفذون ضحايا أبرياء أو يقتلونهم، لكن بوسعنا تخيل أمثلة هامشية محتملة يُنزل فيها المنفذون هذا النوع من المعاناة البالغة على أطراف مذنبة فقط. وعلى سبيل المثال، انظروا في حالة منفذ أحكام

الإعدام الشامت إلى حد السادية، لا يقتل إلا من حُكِم عليهم حكمًا عادلًا بالقتل (لنقُل ذلك جدلًا). إنه يجد متعة كبيرة في إخماد أنفاسهم، ولكن هل يرتكب شرًا؟ أو فكروا في جنود «الجيش الأحمر» الذين أعملوا الوحشية في الأعداء المحاربين وهم يُخرِجون القوات الألمانية من أرض الوطن. وبما أن الألمان هم البادئون بالغزو وكانوا بالفعل قد ارتكبوا من ناحيتهم فظائع عديدة، فكون الجنود الألمان ضحايا أبرياء مسألة فيها كلام. فهل يعني هذا ضمنًا أن الروس لم يرتكبوا شرًا حين عذبوهم وأعدموهم؟

في أمثلة الشر المركزية المثبتة شكليًا، لا يقصد المنفذون فقط إنزال الضرر البالغ، بل ينجحون في فعل ذلك. فما الذي يجب علينا قوله عمن يقصدون تقتيل الضحايا الأبرياء ويشرعون في ذلك، لكن يحبِط محاولاتهم سوء الحظ أو تحبطها السلطات، وينتهي بهم الأمر إلى عدم إيذاء أحد؟ فكروا فيمن عُرف باسم مفجر الحذاء، ريتشارد ريد، والذي حاول إسقاط طائرة ركاب عابرة للأطلسي في ٢٠٠١ وفشل. تبدو محاولة ريد الفاشلة فعلًا بالغ الخطأ، ولكن هل يمثل شرًا؟ هل فعلُ ريد لا يرقى لمستوى الشر لمجرد أن الحظ لم يحالفه؟ مثال هامشي آخر يمثل تحديًا هو مثال المتلصص السادي، والذي لا يُوقِع هو نفسه أذى بأحد، وإنما يختلس الاستمتاع بمشاهدة معاناة الأبرياء البالغة، من قبيل أولئك المحتضرين في خضم الكوارث الطبيعية. إن أفعاله تبدو منفرة أخلاقيًا، لكنها مع ذلك أفعال لا ضرر منها. فهل يدخل الفعل غير المؤذي في عداد الشر؟ وهناك مجموعة أخيرة من الأمثلة الهامشية المحتملة هي تلك التي تخلو فيها الأضرار التي يوقعها المنفذ من تعذيب أو قتل، ولكنها مع ذلك بالغة الشدة. انظروا في الانتهاك الجنسي الفظيع للأطفال على يد الكهنة في الكنيسة الكاثوليكية. فكروا في جوزيف فرتزل، الذي سجن ابنته من صلبه في القبو أربعة وعشرين عامًا، مغتصبًا إياها بشكل متكرر. إنها أخطاء مريعة، ومن شأن كثيرين وصفها بالشر. ولكن ماذا عن اغتصاب

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

لمرة واحدة أو حالة تعذيب فردية؟ من غير الواضح أي درجة يتعين الهبوط إليها على مقياس الحَدِّية قبل أن تبدو تسمية «الشر» غير لائقة. تُطرح أسئلة مماثلة بخصوص المقياس فيما يتعلق بعدد الضحايا. فكل حالة من حالات فاعلي الشر المركزية المثبتة شكليًا والتي نظرنا فيها آنفًا ـ الإرهابيين، والقتلة التسلسليين، ومجرمي الحرب ـ لها ضحايا عديدون. فإن كانت هناك ضحية واحدة فقط لا أكثر، أفلا يزال الفعل معدودًا في حساب الشر؟

هذه هي الأسئلة من النوع الذي سنكتشفه في الفصول ٢-٦. وإذ وصلنا إلى هنا فلعله صار من المعلوم أن هذه أرض وعرة، ليست معقدة ومحيرة فكريًا وحسب، وإنما مربكة أخلاقيًا. فالحدية الأخلاقية مجال يستحضر العواطف الجياشة، ويُحدِث خلافات قوية، وينتزع تصريحات كثيرة مشوَّشة ومشوِّشة. وفيما يلي سأقدم لكم بعض أكثر الخلافات إثارة للاهتمام بين الفلاسفة الذين قدموا رواياتهم عن الشر. سوف نستكشف مختلف الطرق التي حاول بها الفلاسفة تمييز الشرير عما هو سيئ أو خاطئ لا أكثر. وآمل بنهاية هذا الكتاب أن تكون لديكم فكرة أوضح عما يفترض بالشر أن يكون، وأن تكونوا هكذا في موضع أفضل للحكم بشأن وجود أي أفعال شريرة أو أناس أشرار في العالم الحقيقي من عدمه. ولا شك في أن بعضكم سوف يبقى متشككًا في وجود الشر. وفي أيٍّ من الحالتين، من المفترض أن تكتسبوا في سياق العملية فهمًا أعمق لاقتراف الخطأ الحدي والانحطاط البشري، بكل تنوعه الرهيب.

٢٧-٥٨١٨٦٥٨

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفعل الشرير في رعبه واستعصائه على الفهم

في أحد الفصح من العام ٢٠١٩ نفَّذ إرهابيون من «جماعة التوحيد» سلسلة تفجيرات في كنائس وفنادق في سريلانكا، فقتلوا ٢٥٩ شخصًا. وفي ردة فعل على هذا الحدث غرَّدت السياسية الأمريكية إليزابيث وارن قائلة: «إن ذبح المصلين في كنيسة أثناء شعائر الفصح لهو من كبائر الشر». ما الذي كانت وارن تقصد إيصاله بقولها هذا؟ لماذا لم تكتفِ بقول إن هذا النوع من القتل الجماعي خطأ؟ اختارت وارن الحديث بلغة الشر والخير لكي تدين التفجيرات بأشد لهجة ممكنة. الشر ليس شيئًا عاديًا، ولا من ضمن الإيقاع الرتيب للأمور، ولا حدثًا يمر مرور الكرام. الشر مختلف. الشر مميز. ولكن فيمَ بالضبط تختلف الأفعال الشريرة؟ هل من سمات خاصة تمتلكها الأفعال الشريرة لتميزها عن زمرة الأفعال العادية غير الشريرة؟ لقد قدم الفلاسفة طائفة من الإجابات على هذه الأسئلة، وسوف نبدأ الآن في الاشتباك مع رواياتهم للشر بتفصيل أكبر. ومن شأن رواية للشر جيدة فلسفيًا أن تتكون من تعريف للفعل الشرير تتوفر فيه السلامة والقدرة على التفسير، تعريف يصف بدقة طبيعة الأفعال الشريرة، ويسمح لنا بأن نرى كيف تختلف عن الأفعال غير الشريرة. ويجب أن نرفض أي تعريف أوسع من اللازم، بحيث يسمح زللًا بضم أشياء ليست حقًا أفعالًا شريرة. ويجب بالمثل أن نرفض أي تعريف أضيق من اللازم، بحيث يسمح زللًا باستبعاد أشياء هي حقًا أفعال شريرة.

الخطوة الأولى في صياغة تعريف معقول للفعل الشرير هي استيضاح العلاقة بين ما هو شرير وما هو خاطئ. حين نفكر في اختيار وارن لكلمة «شر» في تغريدتها الإدانية، يبدو بديهيًا أن نعت فعل بالشر ليس مكافئًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لنعته بالخاطئ. ومع أن مفهومَي الشرير والخاطئ غير متكافئين، يبدو أن هناك بالفعل شيئًا من التداخل بينهما. إليكم هذا التشبيه: أن نصف إنسانة بأنها أم لا يكافئ وصفها بأنها أحد الوالدين، لكن ذلك لا يعني ضمنًا أن التصنيف «أم» لا يتداخل مع التصنيف «أحد الوالدين». فكما نعلم جميعًا، كونها أمًا يعني كونها أحد الوالدين، ولكنه ليس السبيل الوحيد لتكون أحد الوالدين. فئة الأمهات هي فئة فرعية من التصنيف الأوسع المتمثل في الوالدين. كل أم واحدة من الوالدين، ولكن ليس كل الوالدين أمهات. يبدو من المرجح أن هذا التشبيه يعكس كالمرآة علاقة الأفعال الشريرة بالأفعال الخاطئة. لم تقُل إليزابيث وارن صراحة إن التفجيرات الإرهابية خاطئة، لكنها عندما قالت إنها أفعال شريرة كانت تعني ضمنًا أنها أيضًا خاطئة. وإذا كان فعل ما شريرًا، فلا بد أنه كذلك غير مباح، إنه شيء من النوع الذي نُنهى عنه. تخيلوا كم سيكون من المحير لو أن وارن قالت إن أفعال الإرهابيين شريرة، ثم أضافت أن ما فعلوه لا بأس به، أو أنه مبرر تمامًا. عندما دعت وارن أفعالهم بالشريرة، كانت تخبرنا ضمنًا أنها أفعال خاطئة أخلاقيًا. كل فعل شرير هو كذلك فعل خاطئ. ومع ذلك فليس كل فعل خاطئ شريرًا. وعندما نبحث طيفًا واسعًا من الأمثلة، ستبدو كثرة من الأخطاء دون الشر. نشل المتاجر، مثلًا، خاطئ أخلاقيًا، لكنه ليس شريرًا. الكذب بشأن عمرك بغرض الدخول إلى ملهى ليلي فعل خاطئ أخلاقيًا، لكنه ليس شريرًا. والسبب في أن هذه الأفعال الخاطئة لا ترقى إلى مرتبة الشر هو أنها هينة بل تافهة. فهذه الأخطاء الهينة ليست فظيعة، أو بشعة، أو مفزعة. وعلى خلافها، فإن الأفعال الشريرة فظيعة وبشعة ومفزعة. الأفعال الشريرة ذات خطورة من ناحية الأخلاق. إنها ذات شأن. ولا بد من أخذها بجدية. اختارت وارن أن تستعمل تسمية «شرير» لأنها كانت تحاول إيصال هذا المعنى الخاص بالخطورة الأخلاقية.

يدفعنا هذا نحو رواية فلسفية مبدئية جدًا عن الفعل الشرير. فعندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يفجر إرهابي مِلء غرفة من الأبرياء، يكون قد فعل شيئًا أسوأ بكثير من نشل المتاجر أو الكذب. وربما يكون التعريف الأمثل للأفعال الشريرة هو أنها ببساطة أفعال بالغة الخطأ، أو أفعال أسوأ بكثير من الأخطاء اليومية العادية. مفهوم الفعل الشرير في هذه الرواية يلتقط المنطقة الحمراء عند الطرف الأقصى من طيف ارتكاب الخطأ. الفعل الشرير ليس أكثر من فعل خاطئ جدًا.

الرواية الحدية المبدئية للفعل الشرير: الفعل يُعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خاطئًا بشكل حدي.

هذا التعريف للفعل الشرير به بساطة جذابة، والظاهر أنه ينسجم بشكل لطيف مع أحكام شائعة كثيرة بخصوص أيٍّ من الأفعال المحددة هو الشرير ومن شأنه أن يسمح لنا بتعليل كون التعذيب والقتل الجماعي شريرَين. إنهما شريران لأنهما ببساطة خاطئان بشكل حدي. كما ستسمح لنا الرواية الحدية المبدئية بتفسير كون نشل المتاجر خاطئًا لكنه ليس شريرًا. فنشل المتاجر دون الشر لأنه ليس حديًا. لكن الأمور لا يمكن حسمها بهذه السرعة عندما يكون تفكيرنا فلسفيًا! دعونا نبحث تعقيدًا ينشأ من داخل الرواية الحدية المبدئية، ثم نبحث بعض الاعتراضات على هذا النحو في التفكير حول الشر.

ينشأ التعقيد حين نسأل عما يعنيه أن يكون فعل بعينه أشد خطأ من فعل آخر، أو حين نسأل من أي ناحية تكون الأفعال الشريرة حدية. فهناك، في نهاية المطاف، أبعاد مميزة كثيرة يمكننا وفقًا لها وضع مراتب للأفعال الخاطئة. فبعض الأفعال الخاطئة تُنزل قدرًا أكبر من الضرر مقارنة بغيرها. وبعض الأفعال الشريرة تُخلف عددًا أكبر من الضحايا مقارنة بغيرها. بعض الأفعال الخاطئة كانت لها دوافع مستقبحة أكثر من غيرها. بعض الأفعال الشريرة أشد إثارة للرعب من غيرها. بعض الأفعال الشريرة أجدر بالدرء الوقائي من غيرها. وعلاوة على ذلك، فليس لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن كل هذه الأنواع المختلفة من الحدية سوف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتلازم بإحكام. وإنما يبدو أنها ستتفرق. فالفعل «أ» قد يكون أشد ضررًا من الفعل «ب»، مع أن الفعل «ب» وراءه دوافع أسوأ من تلك الكامنة وراء الفعل «أ». والفعل «أ» قد يكون أجدر بالدرء الوقائي من الفعل «ب»، ولو أن الفعل «ب» أشد إثارة للرعب من الفعل «أ». وإذا ادعينا أن الأفعال الشريرة، بحكم التعريف، أخطاء حدية أخلاقيًا، فسوف نحتاج إلى تحديد عن أي من هذه الأنواع المختلفة من الحدية نتحدث. وهذه ليست بالمهمة السهلة.

افترضوا لوهلة أننا أخذنا بمقدار الضرر الذي يوقعه الفعل الخاطئ بوصفه العامل المهم؛ وفقًا لهذه الرؤية، يستحسن تعريف الأفعال الشريرة على أنها أفعال خاطئة بالغة الضرر.

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء بالغة الضرر: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خطأ بالغ الضرر.

وهذه الرؤية لها من يدافعون عنها، لكنها قوبلت أيضًا بنقد كثير. ويفيد الاعتراض الأول على الرواية القائلة بالأخطاء بالغة الضرر الآتي: إذا كان الشر لا يعدو أن يكون ارتكابًا لخطأ بالغ الضرر، فبمَ نفسر حقيقة أن أناسًا كثيرين كثرة بالغة يتشككون في وجود الشر؟ فالتشكك في الشر كان سيصبح له معنى أكثر لو كان ما يُفترض بالشر أن يكونه شيئًا أشد تعقيدًا وتفجيرًا للخلاف من مجرد ارتكاب أخطاء بالغة الضرر. وهناك اعتراض ثانٍ على الرواية القائلة بالأخطاء بالغة الضرر رائج في أوساط الفلاسفة الذين كتبوا في هذا المبحث عبر العقود القليلة الماضية. يدعي بعض هؤلاء الفلاسفة أن الشر لا يختلف كمًا فحسب عن ارتكاب الخطأ العادي وإنما يختلف كيفًا. فهم يعتقدون أن الأفعال الشريرة ليست ببساطة خاطئة أكثر أو ضارة أكثر من الأخطاء العادية غير الشريرة، ومن هنا رفضُهم الرواية القائلة بالأخطاء بالغة الضرر عن الفعل الشرير. ويطرحون، عوضًا عن ذلك، أن نُعرف الأفعال الشريرة عن طريق تحديد السمة أو الخاصية الإضافية التي تملكها، خاصية مفتقدة تمامًا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخطاء العادية غير الشريرة.

لماذا ساند هؤلاء الفلاسفة الرؤية القائلة بأن الأفعال الشريرة مختلفة نوعيًا عن الأخطاء العادية؟ أحد الأسباب هو رغبتهم في رسم خط قاطع بين الفئتين؛ فئة الشرير وفئة غير الشرير، مستبعدين إمكانية وجود حالات شريرة قليلًا، أو شريرة على نحو ما، أو شريرة نوعًا ما. إذا كان قد وُجد فارق كيفي لا كمي هنا فإن الفارق بين الشرير وغير الشرير سيكون مسألة أبيض وأسود، وليس أبدًا مسألة درجات من الرمادي. وينسجم هذا بشكل لطيف مع حقيقة أن من يدينون فعلًا ما بالشر يبدو أنهم يصدرون حكمًا إثباتيًا. وثمة سبب آخر مختلف تمامًا وراء اعتقاد كثير من هؤلاء الفلاسفة بأن الشر مختلف كيفًا عن الأخطاء العادية. فهم يستجيبون لتحدٍّ يتمثل في تشكيكات نقادهم غير المعتقدين في وجود شيء من قبيل الشر، ممن يرون أنه واجب علينا ببساطة إسقاط المفهوم. والمدافعون عن مفهوم الشر يعتقدون أنه سيكون من السهل قطع الطريق على هذا التحدي التشكيكي إذا أمكنهم تبيان اختلاف الفعل الشرير اختلافًا جذريًا عن ارتكاب الخطأ العادي. فإذا كنا سنفهم من الفعل الشرير أنه يعني «فعلًا خاطئًا جدًا»، يبدو أننا سنتمكن ببساطة من أن نستبدل بحديثنا عن الشر الحديث عن كون الشيء بالغ الخطأ، من دون خسارة تُذكر. إلا أن هؤلاء الفلاسفة يعتقدون أن حديثنا عن الشر مميز ومهم، ويستحق الاحتفاظ به لا استبداله. ويعتقدون أن الطريقة المثلى للدفاع عن مفهوم الشر أمام تهديد المحو هي تبيان تميز الأفعال الشريرة كيفًا عن الأخطاء العادية.

أنا في النهاية غير مقتنع بوجود اختلاف كيفي لا كمي بين الأفعال الشريرة والأخطاء العادية، لكن لا بد لي أن أعترف بأن أغلب الفلاسفة الذين تصدوا لهذه القضية يخالفونني الرأي. والرؤية التي يتبناها خصومي تستحق أن نستقصيها. يرفض هؤلاء الفلاسفة الرواية الحدية المبدئية للفعل الشرير، مدعين عوضًا عن ذلك احتواء الأفعال الشريرة

على مكون إضافي مميز، وليس فحسب مزيدًا من السوء الكائن في الأخطاء العادية. هناك مواضع عديدة يمكننا النظر إليها عند محاولة تحديد موقع هذا الفارق الكيفي المطروح: في ردود أفعال الضحايا والطرف الثالث المتمثل في المراقبين، أو في نفسية القائمين بالأفعال، أو في طبيعة الأضرار التي أوقعتها الأفعال. وسوف نستكشف في بقية هذا الفصل إمكانية تمييز الأفعال الشريرة عن الأخطاء العادية بناء على إثارة كل منها، في الضحايا أو في المراقبين، نوعًا مميزًا كيفًا من ردة الفعل، وسوف ننتقل إلى تقييم الخيارات الأخرى في الفصلين الثالث والرابع.

هل ما يحدث أن الأفعال الشريرة تعد شريرة بسبب الحالة الشعورية المميزة التي تدفعنا إليها؟ عند اللمحة الأولى، قد تبدو هذه المقاربة ذاتية على نحو مقلق. فالفلسفة يُفترض أن تُعنى بالتوصل إلى الحقيقة، لا بوضع المشاعر قبل الحقائق. إلا أنه ليس خارجًا عن المألوف أن نقترح احتمال تعريف الأفعال الشريرة وفقًا لما تُشعرنا به. إن بعض المفاهيم المألوفة تمامًا والمحترمة من دون نقصان مصمَّمة بحيث تستخرج مجموعات من الأشياء ما يربط بينها هو ردود الأفعال التي تُحدِثها فينا تلك الأشياء. فكروا، مثلًا، في تصنيف المضحك. أنواع شتى من الأشياء على كل شكل ولون تدخل في باب المضحك: مزحة فطنة، عثرة ملبوخة، تهجئة خاطئة غير مقصودة، تعبير وجهي مبالغ فيه، نطق طفل لكلمة بشكل خاطئ. إذا رحنا نبحث عن الخاصية الموضوعية والمستقلة التي تشترك فيها كل هذه الأشياء، فالأرجح أننا سنخرج صفر اليدين. لكن هذا لا يبين انعدام ما يعد مضحكًا، ولا وجود عيب في مفهوم المضحك. فالأشياء تعد مضحكة لأن من شأنها تفكيهنا، وهذا مفيد في تفسير حقيقة أن أشياء متنوعة تنوعًا جامحًا تعد كلها في باب المضحكات.

يستعمل الفلاسفة أحيانًا تسمية «مرهون بالاستجابة» إشارة إلى الخصائص المُعرفة من حيث ردود أفعالنا. والاقتراح المطروح أمامنا هو أن الشرير، على غرار المضحك، خاصية مرهونة بالاستجابة. فالأفعال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعد شريرة بسبب ما تُشعِرنا به، وهذه الظاهراتية هي التي تميز الشر عن ارتكاب الأخطاء اليومية، أو هذا ما تخبرنا به هذه القصة. ولكن أي الاستجابات أو ردود الأفعال المحددة مرشّح معقول؟ سيساعدكم في الإجابة عن هذا السؤال أن تسألوا أنفسكم كيف تشعرون أنتم إذ تتأملون حالات أنموذجية للفعل الشرير. كيف تشعرون حين تشاهدون وثائقيًا يُفصّل اختطاف تيد بندي سلسلة من الشابات وتعذيبهن وقتلهن؟ أي عواطف تجيش بكم حين تعاينون رسومًا إيضاحية مقطعية لسفن نقل العبيد، حيث تتكدس الأجساد الحية وتتلاصق الرؤوس مع أصابع الأقدام؟ كيف يكون رد فعلكم حين تشاهدون لقطات من أفلام لغرف الغاز في أوشفيتز، وأكوام الجثث، والألم في أعين الناجين المهزولين؟ أمام هذه الاقترافات الحدية يستجيب كثير منا بالانكماش رعبًا. ويفيد البعض باختبار ردود فعل عاطفية مشابهة؛ «سَيَبان المفاصل»، الاشمئزاز، الفزع، الغثيان، الوجل. وفي سبيل التبسيط، دعونا نستعمل كلمة «ارتعاب» تسمية جامعة لهذه الطائفة من ردود الفعل العاطفية.

إن الفكرة القائلة بوجود صلة بين الشر والرعب تبدو فكرة واعدة. ولكن ما طبيعة هذه الصلة؟ هل يمكننا تعريف الفعل الشرير من حيث صلته بمشاعر الرعب؟ دعونا نبدأ بالنظر في نسخة مبسطة من رواية الفعل الشرير القائلة بالاعتماد على الاستجابة.

رواية الفعل الشرير القائلة بالارتعاب: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، سبَّب أحاسيس الرعب.

هذه الرواية تنسجم فعلًا مع بعض الأمثلة المفتاحية التي نظرنا فيها. كثير من أفعال الشر المثبتة شكليًا تبث الرعب في المراقبين، بما فيها هجمات سريلانكا الإرهابية التي أدانتها إليزابيث وارن. وعلى خلافها، فالأخطاء الهينة من قبيل نشل المتاجر كثيرًا ما تثير الاعتراض الأخلاقي، وحتى السخط، ولكن ليس الرعب. إلا أن الرواية الارتعابية تقع للأسف في مشكلات ذات شأن. فكثرة من الأفعال المرعبة أو المثيرة للغثيان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو للاشمئزاز ليست أفعالًا شريرة. وعلى سبيل المثال، فإن مشاهدة شخص يسير على حبل مشدود فوق هوة تثير رعبًا إلى حد المغص في كثير من المراقبين. إلا أن أحدًا لا يظن من الشر القيام بمثل هذه المآثر الجريئة، مهما يكن من إثارتها للغثيان. (لم يكتسب إيفل كنيفل لاعب التحديات الخطيرة اسم شهرته من قفزاته التي تتحدى الموت بالدراجة النارية، وإنما لمصادفة السجع مع اسم عائلته). وأفعال كثيرة تبعث على الاشمئزاز، مثل بلع أحشاء سمك نيئة، أو تنظيف مرحاض متنقل، ليست شريرة كذلك. ولكننا بهذا ربما نظلم الآن المدافعين عن هذا النوع من رواية الشر القائلة بالاعتماد على الاستجابة. فبإمكانهم أن يزعموا وجود أنواع مختلفة من الرعب وأنواع مختلفة من الاشمئزاز. وإذا كان نوع الرعب أو الاشمئزاز الناجم عن ملامسة أحشاء السمك لا يشبه النوع الأخلاقي الواضح من الرعب أو الاشمئزاز الناجم عن التفكير في أفعال قاتل تسلسلي، فقد نتمكن من الدفاع عن الدعوى القائلة بتميز الأفعال الشريرة عن الأخطاء العادية من جهة إثارة شعور مميز. ويسمح لنا هذا بطرح نسخة منقحة من الرواية القائلة بالاعتماد على الاستجابة.

Telegram:@mbooks90

رواية الفعل الشرير القائلة بالمصدر الأخلاقي للرعب: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، سبَّب أحاسيس رعب ذات طابع أخلاقي.

هذا التعريف للفعل الشرير أشد جاذبية من سابقه. فاستنادًا إلى هذه الرواية، يكون التعذيب والإبادة شرَّين، لأنهما يبثان رعبًا ذا طابع أخلاقي، بينما لا يكون نشل المتاجر شرًا، لأنه لا يبث أي رعب على الإطلاق، ولا يكون أكل أحشاء السمك النيئة شرًا، لأنه لا يبث سوى فزع غير متعلق بالأخلاق، مجرد اشمئزاز مبعثه القرف.

وبالرغم من هذا التقدم، فإن رواية الفعل الشرير القائلة بالمصدر الأخلاقي للرعب ما زالت تواجه اعتراضًا مهمًا. تخيل أنك تدرس في مدرسة سينمائية ومطلوب منك صنع فيلم قصير كتكليف للتقييم النهائي. فتقرر صنع وثائقي عن الإبادة في رواندا عام ١٩٩٤، يفصّل العنف

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الصادم، ويفحص الطريقة التي نجح بها الناجون والمنفذون في العيش جنبًا إلى جنبًا في السنوات التي تلت الفظائع. ونظرًا إلى مهارتك كصانع أفلام واعد، فعندما تعرض عملك على زملاء الصف يتأثرون عاطفيًا، مرارًا وتكرارًا، بحيث يشعرون بالرعب والاشمئزاز الأخلاقيين. لقد فعلت الآن، بعرضك هذا الفيلم، شيئًا بَثَّ الرعب الأخلاقي في المراقبين. ووفقًا لرواية الفعل الشرير القائلة بالمصدر الأخلاقي للرعب، هذا هو بالضبط ما يشترط في الفعل لكي يعد شريرًا. وبهذا يسوء أكثر من ذي قبل حال هذا التعريف للفعل الشرير، كما قد نظن. فعرضك لهذا الوثائقي سبَّب بالفعل أحاسيس رعب ذات طابع أخلاقي، لكن فعلك لم يكن حتى خاطئًا من ناحية الأخلاق، ناهيك بأن يكون شريرًا. وهكذا يتعذر أن تكون الأفعال الشريرة هي تلك الأفعال التي تسبب أحاسيس رعب ذات طابع أخلاقي.

يبدو في هذا الاعتراض شيء من الغرابة، مع ذلك. دعونا نتمهل لننظر في فارق مميَّز مهم يحتفظ بصحته مع كل العواطف. ألا وهو الفارق بين مسبب العاطفة وبين ما يسميه الفلاسفة الموضوع القصدي لتلك العاطفة. الموضوع القصدي لعاطفة من العواطف هو الشيء الذي تتوجه العاطفة نحوه، الشيء الذي تتعلق به. قد يكون من الصعب ملاحظة هذا الفارق، فكثيرًا ما يكون سبب شعورك بعاطفة مطابقًا للشيء الذي تتوجه العاطفة نحوه. فمثلًا، إذا رأيت حية تسعى أمامك مباشرة، تسبب الحية لك الخوف، والحية هي ما تخاف منه. أما في بعض الحالات، فإن مسبب العاطفة لا يتطابق مع الموضوع القصدي لتلك العاطفة. فأنت قد تتسبب في جعلي خائفًا بإخباري عن المخاطر المصاحبة للاحترار العالمي في المستقبل. هنا كانت كلماتك هي ما تسبب في خوفي، لكنني لست خائفًا من كلماتك. فخوفي متوجه إلى شيء آخر؛ ألا وهو الاحترار المستقبلي. وإذا عبَّرنا بكلمات أكثر عادية، فإن ما تسبب في إخافتي ينبغي عدم أخذه بوصفه مطابقًا لما أخاف منه.

واضعين في أذهاننا هذا الفارق بين مسبب العاطفة والموضوع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القصدي لتلك العاطفة، فلنعد إلى حالة وثائقي الإبادة المرعب رعبًا أخلاقيًا. إن عواطف الرعب الأخلاقي والاشمئزاز الأخلاقي التي يختبرها الجمهور سببها أفعالك بصفتك صانع الفيلم، لكن عواطفهم ليست موجهة نحو أفعالك. فالجمهور يرعبه الذبح الجاري بأيدي الهوتو، لا عرضك الفيلم. ويوحي لنا هذا بطريقة يمكننا بها تهذيب روايتنا القائلة بالاعتماد على الاستجابة بحيث لا تضعف أمام الاعتراض السابق. فلعل الأفعال الشريرة ليست هي تلك المسببة للرعب الأخلاقي، وإنما تلك التي نوجه نحوها رعبنا الأخلاقي، تلك التي تمثل الموضوع القصدي للرعب الأخلاقي.

رواية الفعل الشرير القائلة بالتوجه نحو المصدر الأخلاقي للرعب: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان فعلًا نوجّه نحوه أحاسيس الرعب الأخلاقي.

ومن جديد، فإن هذه الرواية تمثل تحسنًا عن سابقتها، لكنها تبقى ضعيفة أمام بعض التحديات القوية. فمَن العائد عليهم ضمير المتكلم بصيغة الجمع في هذا التعريف للفعل الشرير؟ نحن لا ترعبنا كلنا الأشياء نفسها. قدرات بعضنا الخاصة بالاستجابات العاطفية متبلدة. وقد ينظرون إلى اقتراف الخطأ من النوع الأشد حدية من دون أن يطرف لهم جفن، على الأخص إذا لم يكن اقتراف الخطأ موضوع الحديث دمويًا قذرًا أو مقززًا حتى الأعماق. والعكس أيضًا محتمل. فالبعض لديهم استجابات عاطفية مفرطة الحساسية وسيئة التوزيع. وقد يشعرون برعب أخلاقي صادق عندما تواجههم أفعال لا ترقى حتى لمرتبة الخطأ الأخلاقي. فكروا مثلًا في السلوك الجنسي المثلي. (ولنتفق جدلًا على أن الأفعال المثلية مباحة أخلاقيًا. ليس ثمة خطأ أخلاقي في عيش حياة مثلية. ويمكن لمن يختلفون معنا بهذا الشأن أن يختاروا مثالًا آخر). فعلى الرغم من أن الأفعال المثلية ليست خاطئة أخلاقيًا، توجد مجتمعات تشعر فيها أغلبية الناس ليس فقط بمجرد الرفض، وإنما بالرعب

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والاشمئزاز الأخلاقيين نحو السلوك المثلي. فلو صحّت رواية الفعل الشرير القائلة بالتوجه نحو المصدر الأخلاقي للرعب، سيعني هذا ضمنًا أن الأفعال المثلية هي شريرة، لأن هذه الرواية تقول إن الأفعال التي هي موضوع للرعب الأخلاقي شريرة. ولكن ليس من المعقول في هذه الحالة القول بأن السلوك المثلي شر، لأنه ليس خاطئًا أخلاقيًا! والمشكلة الكامنة هنا هي أن العواطف الأخلاقية قد تطيش. ويمكن أحيانًا للعواطف الأخلاقية عند مجتمعات بأسرها أن تطيش، نظرًا للتحامل أو أنواع أخرى من الاعتقاد الباطل. وما يرعب بعض الناس أخلاقيًا بالفعل لا يرجّح أن يتناظر مع ما هو حقًا اقتراف الخطأ الأشد فداحة وبشاعة وحدية.

يبدو أن الأمور لا تسير في صالح روايات الفعل الشرير المعتمدة على الاستجابة. والفكرة القائلة بأن الشر يمكن توصيفه عن طريق ملمسه الشعوري المميز تبدو ضعيفة أمام حقيقة أن أناسًا مختلفين كثيرًا ما يشعرون بأشياء شديدة الاختلاف حيال الفعل الواحد نفسه، وأن بعض هذه المشاعر ضال أو غير مبرّر. يعتقد الفيلسوف ماركوس سنجر أن بإمكاننا حل هذه المشكلة بإجراء تعديل طفيف على الرواية القائلة بالاستجابة. يذهب سنجر إلى وجوب تعريف الأفعال الشريرة بوصفها ذلك النوع من الأفعال التي يجب على الناس أن يوجهوا نحوها رعبًا أخلاقيًا. وهذه النقلة معادلة بشكل تقريبي لأخذ صيغة جمع ضمير المتكلم الماثلة في التعريف السابق بحيث تعود على ما معناه «الأشخاص الحكماء والطيبون الواعون تمامًا بكل الحقائق ذات الصلة، ومن لديهم عواطف أخلاقية مرهفة». هذه الفئة من الناس سوف تُشعِرها بالرعب الأخلاقي فقط الأشياء، وكل الأشياء، التي تبرر حقًا أحاسيس الرعب، أي ما قد نسميه «الأخطاء الجديرة بأن ترعِب».

لقد انتهينا بعد كل هذه التعديلات إلى تعريف يبدو أكثر معقولية إلى حد يعتد به:

رواية الفعل الشرير الخليق بأن يرعب: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان جديرًا بأن يكون موضوعًا للرعب الأخلاقي.

هذا التعريف للفعل الشرير يبدو دقيقًا. فهو يسمح لنا بأن نميز الأفعال الشريرة حقًا عن الأفعال التي لا تعدو أن تكون مقززة أو منفرة أو مخيفة بأشكال غير ذات صلة بالأخلاق. رواية الفعل الشرير الخليق بأن يرعب ترجح كذلك أن التعذيب والإبادة شرَّان، لأن الخيِّرين والحكماء من الناس سوف يرتعبون حين يتأملون هذه الأخطاء الشنيعة. وينسجم هذا التعريف كذلك مع الرؤية القائلة بأن نشل المتاجر ليس شرًا. فلو صادف أن توجهت أي أحاسيس رعب أخلاقي فعلية حيال خطأ هين من قبيل نشل المتاجر، يمكن تجاهل هذه الأحاسيس بوصفها غير متناسبة، ومن ثم غير دالة على ماهية الشر. وحقيقة أن بعض الفئات من الناس يرعبها أخلاقيًا السلوك المثلي لن تخلق مشكلة لتعريف من هذا النوع، ما دمنا أخرجنا هذه الفئات من عداد الحكماء والصالحين المتحلين بالعواطف الأخلاقية المرهفة؛ وفي المجمل، فإن رواية الفعل الشرير الخليق بأن يرعب تبدو مقنعة بشدة. ثمة مشكلة واحدة. فهذا التعريف يخلو من القوة التفسيرية من النوع السليم اللازم للعمل به كرواية فلسفية جيدة للفعل الشرير.

انظروا في المقارنة التالية. تخيلوا أنكم تريدون فهم ما يجعل فعلًا من الأفعال يعد شجاعًا شجاعة مثيرة للإعجاب. إنكم تأخذون في الاعتبار عوامل من قبيل مقدار الخطر الذي ينطوي عليه تنفيذ الفعل، ودرجة الأثرة أو الإيثار في الفعل، ونوع معرفة الفاعل بالمخاطرة الماثلة في الفعل، وصواب الفعل أو خطئه. كل هذه اعتبارات تحضركم كأشياء قد تجعل فعلًا من الأفعال شجاعًا شجاعة مثيرة للإعجاب إلى هذا الحد أو ذاك. افترضوا إذن أن صديقًا لكم يقترح إجابة بديلة عن سؤالكم. فلم لا نكتفي بقول إن الفعل الشجاع شجاعة مثيرة للإعجاب هو، بحكم التعريف، الفعل من النوع الجدير بالثناء وإبداء الإعجاب بوصفه جسورًا، الفعل من النوع الذي من شأن الصالحين والمطلعين المستنيرين أن

يعجبوا بجسارته؟ هذه الدعوى صحيحة، بغض النظر عن قيمتها، لكنها غير مفيدة في الرد على سؤالكم. لقد وضع صديقكم العربة قبل الحصان. مشكلة التعريف المقدم من صديقكم هي صمته عن مسألة أي السمات يجعل فعلًا من الأفعال جديرًا بهذا النوع من الإعجاب. إنه لا يخبركم بسبب استحقاق بعض الأفعال هذا النوع من الإعجاب وعدم استحقاق غيرها. إنه خالٍ من أي قوة تفسيرية.

محتفظين بهذه المقارنة، دعونا نعيد النظر في رواية الفعل الشرير الخليق بأن يرعب. تذكروا أن الاحتكام إلى الرعب الأخلاقي قُدّم في البداية بديلًا عن الرؤية المبدئية القائلة بأن الأفعال الشريرة هي، بحكم التعريف، أفعال بالغة الخطأ. كان يفترض بالملمس المميز للرعب الأخلاقي أن يُشكّل اختلافًا كيفيًا بين الشرور وبين الأخطاء العادية. أما الآن فنحن نبحث الرؤية القائلة بأن الأفعال الشريرة هي، بحكم التعريف، تلك التي يستحسن أن ينشأ عنها هذا الإحساس المميز، الأفعال الخليقة بالرعب الأخلاقي. فما الذي يلزم لفعلٍ كي يكون موضوعًا خليقًا بالرعب الأخلاقي؟ الإجابة، كما يبدو، هي أن الفعل لا بد حقًا أن يكون خاطئًا أخلاقيًا، ولا بد أن يكون خاطئًا بما يكفي ليستدعي لا مجرد رفض خفيف أو سخط وسَط، وإنما رعب أو اشمئزاز أخلاقي بكامل قوته. وبعبارة أخرى، فإن ما يجعل فعلًا من الأفعال خليقًا بالرعب الأخلاقي هو حقيقة أنه خاطئ أخلاقيًا بشكل بالغ. وكل من يحاول تفسير طبيعة الفعل الشرير بأن يحيل إلى رواية الشر الخليق بأن يُرعب سيتعين عليه عندئذ أن يشرح ما الذي يجعل شيئًا جديرًا بالرعب. وعند قيامه بهذا، سيكون من المغوي له أن يعود على عقبيه إلى شيء من قبيل رواية الحدية المبدئية، وهي عين الشيء الذي صيغت مقاربة الاعتماد على الاستجابة لكي تحل محله. أدانت إليزابيث وارن بالشر هجمات أحد الفصح الإرهابية، ومن الصحيح أن تلك الهجمات جديرة بالرعب الأخلاقي. لكننا لا نستطيع تعليل احتساب هذه الأفعال في باب الشر بأن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نشير إلى أنها جديرة بالرعب الأخلاقي. والأحرى أن حقيقة جدارة هذه الأفعال بالرعب الأخلاقي تفسرها حقيقة أنها بالغة الخطأ، وأن المنفذين قتلوا مئات الأبرياء بغير سبب وجيه.

لقد حاولت تطوير أكثر النسخ إقناعًا من رواية الشر القائلة بالاستجابة، حيث تتكون الاستجابة موضع البحث من أحاسيس الرعب الأخلاقي أو الاشمئزاز الأخلاقي. ولكي تتسم روايات كهذه بالمعقولية فإنها تحتاج إلى تهذيبها وتعديلها بحيث تصبح مفيدة تفسيريًا إلى درجة لا مزيد عليها، أو هكذا حاججت. ولكن ماذا لو أنني بدأت هذه العملية بأن اخترت الاستجابة الخطأ لكي أبني عليها مثل هذه الرواية؟ لقد رجح بعض الفلاسفة أن الاستجابة المميزة لأفعال الشر هي استجابة فكرية أكثر منها عاطفية. يقول كثيرون إنهم يجدون الأفعال الشريرة محيرة تمامًا، تُشعِر بالضياع التام، تتعدى القدرة على التفسير، وبعبارة واحدة، عصية على الفهم. بعض الجرائم، من قبيل جرائم القتل الثأرية، هي أعمال مريعة بلا نكران، لكن من السهل بما يكفي أن نفهمها. وعلى النقيض، فحقيقة أن الطبيب الإنجليزي والقاتل التسلسلي هارولد شبمان حقن ٢٥٠ من مرضاه بحُقن قاتلة ليس لها أي معنى على الإطلاق. لعل الفارق المميز بين الأفعال الشريرة والأخطاء غير ذات الصلة بالشر هو أن الشرور عصية على الفهم، بينما الأخطاء العادية يمكن فهمها. ثمة خط فاصل حاد بين ما هو عصي على الفهم وبين ما يمكن فهمه إلى حد ما، ولذا فقد يروق هذا الخيار لأولئك الفلاسفة المؤمنين بأن الأفعال الشريرة ليست فحسب أشد خطأً من الأخطاء العادية، وإنما تحتوي على خاصية إضافية غير حاضرة في الأخطاء العادية بأي درجة. أينبغي علينا إذن تعريف الأفعال الشريرة من حيث استعصائها على الفهم؟

يتمثل التحدي المبدئي في تبيُّن كيف بالضبط نفسر عبارة «عصي على الفهم» في هذا السياق. يصبح شيء ما عصيًا على الفهم لو تعذر علينا فهمه، لكن هناك طرقًا متمايزة شتى يمكننا بها أن نعجز عن فهم فعل من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأفعال. أولها عدم فهم ما قد فُعِل، بمعنى عدم القدرة على تمييز الفعل موضع الحديث، أو التعرف عليه، أو تصنيفه، أو تفسيره. فلو شاهدتم مثلًا رياضة أجنبية وصدرت عن الحَكَم إشارة باليد غير مألوفة، يجوز لكم القول إن فعل الحكم عصي على الفهم. ليست لديكم أدنى فكرة عما فعله الحكم لتوّه. ومن الواضح أن هذا لا يمكن أن يكون المعنى الصادر عن دعوى استعصاء الأفعال الشريرة على الفهم. إن جرائم القتل التسلسلي التي ارتكبها شبمان هي جرائم قتل، عمليات قتل متعمدة لأبرياء لا يرغبون في الموت. ومن يدعي أنه يجد فَعلات شبمان عصية على الفهم لا يعني جهله أي نوع من الأفعال فعل. من الأرجح أنه يقصد عجزه عن فهم دافع شبمان لفعل ما فعل. ومن الصحيح أن من الصعب جدًا تحديد الدوافع الكامنة وراء بعض أفعال الشر المثبتة شكليًا، بما فيها أفعال شبمان. وعلى نحو مماثل، فإنكم قد تعانون لفهم ما الذي يجعل الهوتو ينقضون على جيرانهم التوتسي ويجهزون عليهم بالمِحَشّات. ما الذي دار بخلدهم؟ إلامَ كانوا يَضبون؟ ما الذي حركهم للتصرف على هذا النحو؟ قد يُقترح أن السمة المميزة للأفعال الشريرة، مقابل الأخطاء العادية، هي أننا لا نستطيع تحديد الدوافع الكامنة وراء الأفعال الشريرة، ومن هنا فإنها تبدو لنا محيرة.

رواية الفعل الشرير القائلة بالدافع المبهم: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، تعذر تحديد الدوافع التي انطلق منها.

بينما من الصحيح أن الأفعال الشريرة عصية على الفهم بهذا المعنى، فليس من المعقول أن يؤخذ بهذا كوسم مميز للفعل الشرير. وتتمثل مشكلة بديهية في وجود وفرة من الأفعال اللاعقلانية المندفعة والتي هي مبهمة تمامًا بهذا المعنى للكلمة، ولكنها لا تدخل حتى في باب الخطأ الأخلاقي. تخيلوا أن صديقكم انحنى فجأة وبدأ يأكل النجيل النامي في الفناء، وأنكم عاجزون عن تحديد الدوافع التي يتصرف انطلاقًا منها. فعلى الرغم من أن هذا الفعل مبهم، لا يغلب علينا الميل إلى تسميته

شريرًا. إنه عديم الضرر، ومحير، وغريب لا أكثر ولا أقل. ولكن حتى لو حصرنا تركيزنا في الأفعال المبهمة التي تمثل أيضًا أخطاء أخلاقية يعتد بها، فمن الخطأ الظن بأن الأفعال الشريرة كلها مصدرها دوافع مجهولة. فأمثلة نموذجية للفعل الشرير فُعلت انطلاقًا من دوافع يمكننا تمييزها. والحال أن كثيرًا من فاعلي الشر يخبروننا صراحة لماذا فعلوا ما فعلوا. وكثيرًا ما يذيع الإرهابيون ومجرمو الحرب ذوو الدوافع الأيديولوجية أهدافهم كجزء من عملية التجنيد، لكن حقيقة أننا باستطاعتنا تحديد دوافعهم لا تسهم بشيء في تقليل فداحة إجرامهم، ولا في جعله بغيضًا أقل. كثير من القتلة التسلسليين يكشفون دوافعهم بعد وقوع الجريمة. نعلم أن جون واين جاسي، على سبيل المثال، رغب في تعذيب ضحاياه وقتلهم لأنه استمد إثارة جنسية كثيفة من فعل ذلك، ونحن نعلم هذا لأنه شرح دافعه في اعترافاته، ولأن ما قاله فيها ينسجم مع روايات الناجين. ولكن تخيلوا كم سيكون من الغريب أن يقول أحدهم: «في البداية كانت أفعال جاسي عصية على الفهم وشريرة بالنسبة إليّ. ولكنني فهمت الآن أنه عذَّب أولئك الصبية وقتلهم لأنه استمد من معاناتهم لذة جنسية شديدة، ولذا لم أعُد أعتقد أن ما فعله شرير». هناك دوافع كثيرة بشعة، وشنيعة، وسيئة القصد، وجديرة بأشد الإدانة. وفهم تلك الدوافع لا يؤدي بنا ويجب ألا يؤدي بنا إلى تخفيف إدانتنا للأفعال موضوع البحث.

غير أن هناك تفسيرًا محتملًا آخر للدعوى بأن الأفعال الشريرة هي، بحكم التعريف، أخطاء عصية على الفهم. فعندما يقول الناس إن فعلًا شريرًا هو خطأ عصي على الفهم، فلعلهم يقصدون شيئًا من قبيل «هذا الفعل خاطئ، ولا يمكنني أن أتخيل نفسي أبدًا أختار فعل شيء كهذا». وتنشأ عن هذا رواية محتملة أخرى للفعل الشرير.

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء لا يمكن تخيل فعلها: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خاطئًا أخلاقيًا، ولا يمكننا تخيل أنفسنا نختار فعله.

يبدو هذا الآن أقرب إلى تعريف معقول للفعل الشرير. لعل بإمكانكم تخيل أنفسكم تختارون أن تنشلوا متجزا وترتكبوا أخطاء عادية أخرى، على الأقل في بعض الظروف. وعلى النقيض (كما أتمنى!) لا يمكنكم تخيل أنفسكم تتحزمون بصديري انتحاري ناسف، وتدخلون كنيسة في سريلانكا في أحد الفصح، وتقتلون مئات المصلين الأبرياء. فعلى الرغم من معرفتكم بما دفع إرهابيي «جماعة التوحيد الوطنية» إلى تنفيذ هذه التفجيرات، تبقى أفعالهم عصية على فهمكم بهذا المعنى الجديد، ومن هنا، ووفقًا للرواية موضع البحث، فإن أفعالهم سترقى إلى اعتبارها شريرة.

هل يكمن الاختلاف بين الشرور والأخطاء العادية في حقيقة أننا نستجيب للأفعال الشريرة بهذا النوع من عدم الفهم؟ على بعض أجراس الإنذار أن تنطلق، باعتبار استقصائنا السابق للروايات الاستجابية القائمة على الرعب. ومن جديد، لا بد أن نسأل أنفسنا على من يعود ضمير المتكلم بصيغة الجمع في هذا التعريف؟ من الواضح أن إرهابيي سريلانكا أمكنهم أن يتخيلوا أنفسهم يختارون فعل مثل هذه الأفعال، كما يمكن للكثيرين من مؤيديهم المتطرفين أن يتخيلوا ذلك. فإذا افترض أن يكون الاستعصاء على الفهم سمة مميزة للفعل الشرير، فلا بد أنه الاستعصاء على فهم الفئة الصحيحة من الناس، ألا وهي الصالحون أخلاقيًا والمتحلون بالحكمة والمطلعون المستنيرون الذين تعد تخيلاتهم انعكاسًا موثوقًا به للحقائق الأخلاقية. الأفعال الشريرة أفعال يجب ألا نختار فعلها أبدًا، ولا يمكن للصالحين والحكماء تخيل أنفسهم يختارون فعلها. لكن لو كان الحال كذلك، فنحن بحاجة إلى أن نسأل لماذا من شأن الصالحين والحكماء أن يجدوا هذه الأفعال المحددة عصية على الفهم. ومن المؤكد أن الإجابة في حالة الأفعال الشريرة هي أنه يجب ألا تُختار تحت أي ظرف لأنها أخطاء حدية، أو لأنها تُوقِع أضرارًا فظيعة على الأبرياء. لا يمكننا تعليل احتساب فعلٍ ما فعلًا شريرًا بالإحالة إلى حقيقة

أن شخصًا صالحًا أخلاقيًا ما كان ليتخيل نفسه يختار فعله، لأن التفسير في واقع الأمر يسير في الاتجاه المعاكس. فالشخص الصالح أخلاقيًا ما كان ليتخيل نفسه أبدًا يختار فعل هذا الفعل لأن هذا الفعل أسوأ بكثير من الأخطاء العادية.

لقد استكشفنا في هذا الفصل احتمال أن يكون الفارق الكيفي الذي يميز الأفعال الشريرة هو استجابة مميزة صادرة عن الضحايا أو طرف ثالث من المراقبين. تنشأ مشكلات مماثلة أمام الروايات الاستجابية بغض النظر عما إذا كنا نتتقي استجابة عاطفية كالرعب الأخلاقي، أو استجابة فكرية كالاستعصاء على الفهم. تبدو هناك بالفعل صلة بين الأفعال الشريرة وبعض أنواع الاستجابة السلبية من المراقبين، لكن اتصاف الأفعال بالخطأ البالغ هو ما يحكم متى يكون الرعب والاستعصاء

Telegram:@mbooks90

على الفهم استجابتين ملائمتين، وليس حضور الرعب أو الاستعصاء على الفهم هو ما يجعل الفعل بالغ الخطأ. وفي ضوء هذا، علينا أن نخلص إلى أن الشر ليس حقًّا خاصية مرهونة بالاستجابة. ولعلكم ستتذكرون اقتراحي بأن مفهومًا مألوفًا آخر - مفهوم المضحك - يلتقط بالفعل خاصية استجابية. فما الفارق بين خاصية الإضحاك وخاصية أن يكون الفعل شريرًا؟ سيرضى أغلبنا بقبول الفكرة القائلة بأن ما هو مضحك محكوم بما يجده الناس بالفعل مفكهًا. إذا تفكَّه الناس بنطق أخيك الصغير لكلمة نطقًا خاطئًا، إذن فهو شيء مضحك. حقيقة أن الناس يتفكهون بذلك هي ما يجعله يرتقي إلى مرتبة المضحك. لكن بعض الناس، بالطبع، قد لا يجدونه مفكهًا، ولا بأس بهذا. من السهل أن نكون نسبيين فيما يخص المضحك. فهناك ما هو مضحك لي، وما هو مضحك لك، لكن ليس واقع الأمر أن واحدًا منا بمفرده هو من أصاب. فلا يمكن أن يغلط الناس عندما يتعلق الأمر بما يضحك. وعلى النقيض، يمكن للناس أن يغلطوا حين يتعلق الأمر بالحكم على شيء ما بأنه شرير، وحين يتعلق بالاستجابة على نحو لائق للأفعال الشريرة. يعجز بعض الناس

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

عن الشعور بالرعب حيال ما هو حقًّا خليق بأن يرعب. وبعض الناس، بمن فيهم إرهابيو «جماعة التوحيد الوطنية»، لا يكتفون بتخيل أنفسهم يختارون فعل الشر، بل يخطون قُدمًا في واقع الأمر ويفعلونه. لو أردنا فهم الاختلاف بين الأفعال الشريرة والأخطاء العادية، فنحن بحاجة إلى النظر إلى ما هو أبعد من ردود أفعالنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفعل الشرير

ووسمه النفسي المميّز

يعتقد البعض أن من الخير لنا التخلص من مفهوم الشر. فهم يعتقدون أن الشر لا يعدو أن يكون مجرد أسطورة، وأسطورة خطرة كذلك. أما بعضنا ممن يريدون الدفاع عن هذا المفهوم فمطلوب منهم إفادتنا بتعريف للشر معقول ومفيد معرفيًا، وتبيان أن هذا التعريف يصف بدقة بعض الأمور في العالم الحقيقي. لقد رأينا أن بعض الفلاسفة يعتقدون أن الطريقة المثلى للرد على التحديات المتشككة هي الدعوى بأن الفعل الشرير متمايز كيفيًا عن ارتكاب الخطأ العادي، ثم تحديد أي سمة خاصة تميزه عن غيره. هناك ثلاثة مواضع يمكننا معاينتها بحثًا عن خاصية كهذه: في ردود أفعالنا على الشر، أو في نفسية مرتكب الشر، أو في طبيعة الأضرار التي يُوقعها الفعل الشرير. وقد رأينا في الفصل الثاني مدى صعوبة أن نبني رواية استجابية مقنعة تُعرِّف الشر من حيث ردود أفعالنا. وسوف ننتقل الآن إلى بحث إمكانية وجود وسم نفسي للشر. وهذه هي الرؤية القائلة بأن الاختلاف بين الشرور والأخطاء العادية يكمن في شيء مميز يخص دوافع الشخص المنفذ للفعل الشرير أو حالته العاطفية.

هل يدخل الفعل في عداد الشر بسبب حقيقة ما تتعلق بعقل مرتكب الشر؟ فكروا في الأفعال التي أداها الإرهابي برنتون تارانت. ففي ٢٠١٩ بث على الإنترنت جريمة قتله الجماعي للمصلين في مسجدَين بمدينة كرايستشرش في نيوزيلندا. يبدو هذا لكثير منا مثالًا أنموذجيًا لفعل شرير، ولكن ما الفارق المهم بين أفعال تارانت والأخطاء العادية التي لا حصر لها وتقع كل يوم؟ لعل ما يجعل أفعال تارانت شريرة هو حقيقة أنه

تصرف انطلاقًا من دافع من نوع غير حاضر في ارتكاب الأخطاء اليومية، أو لعلها شريرة لأن تارانت عندما نفذ جرائم القتل هذه شعر بعواطف غائبة في حالات ارتكاب الأخطاء اليومية. طرحت حنة آرنت شيئًا يشبه هذه الرؤية للفعل الشرير في كتابها العائد لعام ١٩٥١ «أصول الشمولية». فزعمت أن مجزرة الهولوكوست كشفت عن «شر جذري» يتعذر أن تفسره الدوافع العادية المتمثلة في «تغليب المصلحة الذاتية، والطمع، والحسد، والغيظ، واشتهاء السلطة، والجبن» (وكما سنرى، فإن هذه رؤية تبرأت منها آرنت لاحقًا).

هذه الطريقة المركزة على ما هو نفسي في توصيف الفعل الشرير تستحق استكشافها بالتفصيل، لكن دعونا نتراجع عن التفكير في الشر ونقضي لحظة في بحث كيفية تعريف بعض أنواع أخرى من الفعل. بعض أنواع الفعل لا تُعرَّف بالإحالة إلى نفسية الذات الفاعلة (أي الشخص المنفذ للفعل المذكور). فكروا فيما يقتضيه وضع شيء في عداد الأفعال الضارة. الفعل يُعد ضارًا إذا، وفقط إذا، سبَّب ضررًا لشخص أو لشيء، والأفعال المسببة للضرر يمكنها أن تصدر عن أي دافع كان، ويمكن أن ترافقها أي عاطفة لدى الذات الفاعلة. بعض الأفعال الضارة انتقامية، وفي هذه الحالة ينوي الفاعل إيذاء الضحية. وبعض الأفعال الضارة لا يقصد الفاعل منها الإيذاء، لكن الفاعل يُنزِل الضرر بالضحية عالِمًا، باعتبار هذا الضرر أثرًا جانبيًا معلومًا مسبقًا، لتحقيق هدف آخر مرغوب. بعض الأفعال الضارة تأتي من نيات حسنة ورغبة فيما يعود بالنفع على أولئك الذين ينتهي بهم الأمر متضررين. ولذا فإن الفعل الضار يعد ضارًا استنادًا إلى آثاره استنادًا صرفًا، وليس بالمرة استنادًا إلى نفسية الفاعل المنفذ للفعل المذكور. وعلى النقيض فإن فئات أخرى كثيرة من الفعل تُعرَّف بالإحالة إلى نفسية الفاعل. فأنْ يُعد فعل من الأفعال حنونًا، مثلًا، يعني أن يكون الفاعل قد تصرف من منطلق الانشغال بمعاناة شخص آخر. بعض الأفعال الخيِّرة من حيث آثارها ليست أفعالًا حنونًا، لأنها لم تصدر

عن الحالات النفسية المحددة التي يتطلبها اعتبار فعلٍ ما حنونًا. الأفعال الثأرية، على غرار الأفعال الحنون، تُعرَّف من حيث نفسية الفاعل. يوضع الفعل في مصاف الانتقامي فقط إذا فُعل رغبة في تدفيع الثمن، وفي إنزال الانتقام، وربما إذا صاحبه نوع من الغضب أو النية السيئة نحو ضحيته.

هدفنا في هذا الفصل أن نتبين ما إذا كانت فئة الفعل الشرير، على غرار الفعل الحنون والفعل الثأري، يلزم تعريفها بالإحالة إلى دوافع أو مشاعر الذات المنفذة للفعل، أو ما إذا كانت الأفعال الشريرة، على غرار الأفعال الضارة، يمكن أن تصدر عن أي دوافع كانت. نحن أيضًا بحاجة إلى النظر فيما إذا كانت نفسية فعل الشر المميزة من الممكن أن تكفي بمفردها للتفريق بين الأفعال الشريرة والأفعال غير الشريرة، أم أنها قد تكون مكونًا ضروريًا واحدًا فحسب من مكونات الشر. لقد زعم فلاسفة معاصرون عديدون أن أفعال الشر تتميز عن الأخطاء العادية من حيث الحالة النفسية لمرتكب الشر. ومع ذلك، كما سوف نرى، فهم لا يتفقون بشأن أي حالة نفسية هي المصدر المميز لفعل الشر. سوف نتصدى لأربع حالات مرشحة لتكون الوسم النفسي المميز للشر: سوء القصد، واللذة السادية، والمكابرة، وإسكات الصوت الداخلي.

لنبدأ بمحاولة فهم طبيعة سوء القصد. لنفترض أن لديك منافسًا في دائرة أصدقائك يستهزئ بك أمامهم. إن أوغر هذا صدرك عليه، يعني ذلك أنك تكنُّ له مشاعر عدائية، وتتمنى له السوء. يعد الفعل سيئ القصد إذا كان تعبيرًا عن هذه المشاعر والرغبات. إذا قادتك مشاعرك العدائية إلى أن تجرح منافسك أو تهينه، فقد تصرفت بسوء قصد. نحن بحاجة إلى التفكير بتروٍّ هنا، لأن هناك حالات غير معتادة قد تُوقِعون فيها الضرر عمدًا بشخص دون أن ينطوي تصرفكم على سوء قصد. وافترضوا مثلًا أنكم تحاولون تعليم أختكم الصغيرة الحبيبة تجنب مضايقة الكلب، لأنكم قلقون من أن يعضها الكلب إذا استُفز، وهو أمر مرجح. وافترضوا

فوق ذلك أن أختكم لم تستجب لتحذيراتكم الرقيقة، ولا لوصفكم الضرر الذي قد يُحدِثه الكلب، فتصلون إلى الاعتقاد بأن الطريقة الوحيدة التي ستتعلم بها أختكم تجنب استفزاز الكلب هي أن يخيفها الكلب. وهكذا فإنكم تتدخلون، وتجعلون الكلب يلتف إلى أختكم وينبح تجاهها بعدوانية. حين ترون أختكم مغتمة يسعدكم هذا الأمر. فهذا ما أردتموه. لكنكم لم تتصرفوا بسوء قصد نحو أختكم في هذه الحالة. أردتم جعلها تعاني فقط وسيلة منكم لجعلها آمنة على المدى الطويل. عندما يكون الفعل سيئ القصد، فإن الفاعل لا يريد من معاناة الضحية أن تكون مجرد وسيلة يأتي منها خير للضحية. بل يريد الفاعل سيئ القصد ببساطة أن يجعل الضحية تعاني، أو يريد للضحية أن تأتيها ضارة «غير نافعة». ينطوي سوء القصد على تبييت النية السيئة للآخرين، والأفعال سيئة القصد هي تعبيرات عن هذه النية السيئة.

كثير من الأفعال الخاطئة ليست سيئة القصد. انظروا حالة سائق يتحدث على الهاتف غير منتبه للطريق، فيفقد التحكم في سيارته ويصدم أحد المشاة. هذا فعل خاطئ أخلاقيًا يستحق السائق الاتهام فيه، لكنه عائد إلى الإهمال، لا إلى سوء النية. بالتأكيد لم يكن ما حدث أن السائق كان يَكِنُّ الحقد للسائر، وهو شخص لم يكن قد التقى به قَطُّ، شخص لم يعرف عنه شيئًا، شخص لم يكن يفكر فيه وقت وقوع الحادثة. في بعض المواقف الأخرى يتعمد الناس إلحاق الضرر بالضحايا الأبرياء، ويفعلون ذلك من دون وجه حق، مع أنهم لا يحملون نية سيئة لمن يؤذونهم. فسارقو السيارات وفق النموذج النمطي لا يريدون المعاناة لضحاياهم. إنهم لا يريدون سوى السيارة! يسرقون عالِمين أنهم يسلبون شخصًا آخر ملكيته، لكن دون تبييت نية سيئة لمن يتعدون هم على حقهم. (يبدو صحيحًا أنهم يُظهِرون عدم الاحترام لأصحاب السيارات، وربما لا يَكِنُّون لهم الخير وحسن النية، لكن شيئًا من هذين لا يرقى إلى مرتبة سوء القصد). وعلى نحو مماثل، فإن أنواعًا كثيرة من اقتراف

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطأ الشائعة في عالم الشركات ـ الاحتيال، بيع «علاجات» مزيفة، تلويث البيئة ـ تحركها دوافع الطمع البسيط، لا رغبة في جعل الضحايا يعانون.

لقد رأينا أن سوء القصد نمطيًا غير حاضر في ارتكاب الخطأ من جراء الإهمال، ولا في ارتكاب الخطأ الذي تحركه دوافع ذرائعية محضة. وعلى النقيض، فإن سوء القصد حاضر بوضوح في أفعال قتلة تسلسليين كثر، بمن فيهم سفاح جرين ريفر، جاري ريدجواي، الذي اغتصب ما يصل إلى خمسين عاملة جنس وخنقهن لأنهن كن «من السهل اصطيادهن»، ولأنه كان «يكره معظمهن». وسوء القصد محرك يعتد به في أفعال قتلة كثيرين شاركوا في الهولوكوست، وفي إبادة الأرمن، وفي عمليات التطهير الستالينية، وفي فترة حكم الخمير الحمر المخضبة بالدماء. كثيرون من هؤلاء القتلة لم يروا ضحاياهم كأشخاص رماهم الحظ في طريقهم كعقبة. بل رأوا ضحاياهم أعداء فاسدين وخطرين يستحقون الموت، أو آفات لاإنسانية يحتاجون إلى القضاء عليها. وعلى هذا النحو بالضبط رأى برنتن تارانت ضحاياه الأبرياء في كرايستشرش.

المرجو أنكم بدأتم ترون السبب في أن سوء القصد منافس معقول للحصول على لقب الوسم النفسي للفعل الشرير. وسبب من الأسباب أن حضور سوء القصد من عدمه يقسم الأخطاء إلى فئتين. سوء القصد غائب في أخطاء كثيرة، لكنه حاضر في مجموعة فرعية من الأخطاء، بما فيها كثير من الفظاعات سيئة الصيت. وعلاوة على ذلك فعندما يكون سوء القصد هو الدافع الكامن وراء فعل خاطئ فإنه يفاقم الخطأ. سوء القصد يجعل الفعل الخاطئ أسوأ أخلاقيًا مما كان سيصبح عليه بغير ذلك. والأثر المفاقِم الذي لسوء القصد ينعكس في باب جرائم الكراهية، وهي الجرائم التي يتلقى المنفذون عليها عقوبة أقسى وإدانة أخلاقية أشد بالمقارنة. وهناك شيء مريع على نحو خاص في حقيقة أن مرتكبي الأخطاء سيئي القصد يتحينون الفرصة لإيقاع الأذى، وأنهم

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يريدون لضحاياهم أن يعانوا أو أن يَهلَكوا. وفي ضوء هذا كله، ليس من المستغرب أن يعتقد بعض الفلاسفة، ومنهم لورنس توماس ومانويل فارجاس، أن سوء القصد جزء ضروري من الفعل الشرير. فيزعم جون كيكس أن:

مرتكبي الشر يُسبِّبون ضررًا أكثر جدية مما يتطلبه تحقيق غاياتهم [الأخرى]. هم ليسوا فقط عديمي المبادئ الأخلاقية في اختيارهم الوسائل، وإنما تحركهم دوافع إحداث المكروه إلى حد الإفراط المجاني. وهم يعاملون ضحاياهم بخبث طويَة أو بغِلٍّ أو بمقت.

هناك سؤالان مهمان نحن بحاجة إلى الجواب عليهما عند هذه النقطة. أولهما: هل الفارق الوحيد بين الشرور والأخطاء العادية هو أن الأفعال الشريرة ارتُكبت بسوء قصد؟ وبعبارة أخرى، هل حضور سوء القصد كافٍ لزحزحة أي فعل خاطئ ليدخل في باب الشر؟ لو كان الأمر كذلك، فسوف ننتهي إلى التعريف التالي:

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء سيئة القصد: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خاطئًا أخلاقيًا وسيئ القصد.

الجواب على أول هذين السؤالين هو، وبكل وضوح، لا. فهناك كثرة من الأفعال الخاطئة أخلاقيًا والتي يحركها سوء القصد لكنها تظل هينة أو عديمة العواقب أو تافهة. تخيلوا أن سوء النية الذي تبيتونه لمنافسكم دفعكم إلى الكذب بشأنه كذبة تحرجه أمام أصدقائكم. هذا النوع من الأفعال خاطئ أخلاقيًا، وسيئ القصد، ويُوقِع بالفعل شيئًا من الضرر على الضحية. ومع ذلك فلا يتوفر فيه شرط الخطورة الأخلاقية لكي يرقى إلى مرتبة الشر. كثيرًا ما تكون الأفعال سيئة القصد صغيرة، والصغير صغير وحسب. وبينما سوء القصد عامل مفاقم للأفعال الخاطئة، فإن حضور سوء القصد لا يقذف كل خطأ سيئ القصد هين قذفًا تلقائيًا إلى فئة الشر. لكن سؤالًا مهمًا ثانيًا يبقى: هل حضور سوء القصد شرط ضروري للفعل الشرير؟ وبعبارة أخرى، هل الحال أن كل فعل شرير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارتُكب بسوء قصد نحو الضحية؟ يُسلِّم المدافعون عن هذه الرؤية بأن سوء القصد وحده لا يكفي لتوفير الحدية المشترطة في الفعل الشرير، ومن ثم بأننا بحاجة إلى ضم شرط مستقل في تعريفنا للشر يثبت تلك الحدية. غير أنهم يرون أن الأفعال الشريرة هي المجموعة الفرعية من الأخطاء الحدية المرتكبة كذلك على نحو سيئ القصد. يعتقد هؤلاء الفلاسفة أن سوء القصد هو ما يميز الأفعال الشريرة عن الأخطاء غير الشريرة ولكن الحدية. ويمنحنا هذا الاعتقاد التعريف التالي:

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء حدية سيئة القصد: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خاطئًا أخلاقيًا بشكل حدي وسيئ القصد.

قد تبدو هذه الرواية جذابة، على الأخص إذا ركزنا على الأمثلة التي سبق نقاشها والخاصة بسيئي القصد من القتلة التسلسليين ومجرمي الحرب. إن أفعالهم أمثلة نموذجية مرشحة لاعتبارها شريرة، ومقترفو الخطأ هؤلاء تصرفوا حقًا من منطلق البغض عندما أهلكوا ضحاياهم. لكننا لا نستطيع اختبار تعريف فلسفي بمجرد تعيين بضعة أمثلة تتماشى معه. لا بد أيضًا أن ننظر لنرى ما إذا كانت هناك أي حالات لا تنسجم مع التعريف المطروح. وبتعبير الفلاسفة، نحن بحاجة إلى البحث عن أمثلة مخالفة لهذا التعريف. وفي حالتنا هذه نحن بحاجة إلى أن نسأل ما إذا كانت هناك ربما بعض الأفعال التي تبدو شريرة، لكنها ليست أخطاء حدية تُرتكب بسوء قصد. وبمجرد أن نكون قد أطَّرنا القضية على هذا النحو فليس من الصعب فوق الحد أن نُقرِّب العدسة على الأمثلة المخالفة المحتملة. فالضرر البالغ يقع أحيانًا على الضحايا مع غياب سوء القصد. نحن بحاجة إلى أن نسأل ما إذا كانت أي أفعال أوقع فيها الفاعلون الضرر البالغ من دون وجه حق ولكن بغير سوء قصد قد ترقى إلى مصاف الشر. إذا أمكننا تعيين بعض أمثلة كهذه، فسنكون قد أضعفنا الدعوى القائلة بأن سوء القصد هو الوسم النفسي للفعل الشرير.

أحد أنواع الحالات التي يُلحَق فيها الضرر من دون سوء قصد هو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما يكون الضرر موضع البحث أثرًا جانبيًا معلومًا مسبقًا ولكن غير مقصود لسعي الفاعل نحو غاية أخرى. فكروا فيما يسمى «الخسائر الجانبية» في ضربة بمسيرة عسكرية. يشير مصطلح «الخسائر الجانبية» هنا إلى الأبرياء الموجودين في محيط المكان والذين كان قتلهم نتيجة فرعية معلومة مسبقًا ولكن غير متعمدة لقتل الهدف المقصود. الضباط العسكريون الذين تحكموا في هذه الضربة يمكنهم أن يقولوا من دون أن يجانبهم الصواب إنهم لم يبيتوا نية سيئة لهؤلاء الضحايا الآخرين. فهم لم يكونوا يكرهونهم، لم يريدوا لهم الموت، لم يكونوا يحاولون قتلهم. وهم في نهاية المطاف، كما قد يقول الضباط العسكريون، كانوا سيَصفُّون هدفهم المقصود من دون مزيد من الخسائر في الأرواح، لو كان هذا قابلًا للتنفيذ. إلا أن حقيقة عدم تبييت الضباط سوء قصد نحو هؤلاء الضحايا الأبرياء هي، عند مراقبين كثيرين، أقل من أن تكفي لتخفيف قوة الإدانة الأخلاقية التي يستحقونها. فخسائرهم الجانبية كانت عمليات قتل باردة، وغليظة القلب، ومجردة من الإنسانية، وشنيعة تمامًا. تخيلوا حالة مختلفة مماثلة في بنيتها، وفيها يعلم أعضاء مجلس إدارة شركة صيدلانية أن عقارهم الجديد الباهظ للغاية ستكون له آثار جانبية قاتلة عند ٥ بالمائة من العملاء، لكنهم يقررون إخفاء هذه الحقيقة ويُسوِّقون للجماهير منتجهم على كل حال، ما يسفر عن آلاف الوفيات. لم يتصرف أعضاء مجلس الإدارة بسوء نية نحو ضحاياهم، ولا تعمدوا قتلهم. وإنما كانوا يحاولون فقط جني ربح. ومع ذلك، كان فعلهم الخالي من سوء القصد خاطئًا، وحديًا، وجديرًا بأشد الإدانة من ناحيتنا. إذا كانت عمليات القتل المعلومة مسبقًا ولكن غير العمدية على غرار هذه خاطئة بما يكفي للارتقاء إلى مصاف الشر، يجب علينا أن نرفض رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء حدية سيئة القصد.

أما من يريدون الدفاع عن رواية الأخطاء الحدية سيئة القصد فيمكنهم الادعاء بأن القتل غير المباشر، غير سيئ القصد، المتعلق بالخسائر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجانبية، هو مريع وحدي أخلاقيًا، لكنه ليس شرًا أبدًا. لكن تحديًا أقوى حتى من ذلك لرواية الفعل الشرير هذه ينشأ فيما يتعلق بأعمال القتل غير سيئة القصد والمدفوعة بذرائع. فهناك حالات يقتل فيها الناس عمدًا، وسيلةً منهم لتأمين هدف مرغوب آخر ما. فبعض سارقي البنوك يقتلون مدنيين في سياق سرقاتهم، إما بإطلاق النار على موظفي البنك رافضي الانصياع للتعليمات، أو بإطلاق النار على الشهود ممن قد يمكنهم التعرف عليهم في المحكمة، أو بإطلاق النار على الرهائن كجزء من عملية التفاوض. وعلى النقيض من أعمال القتل المتعلق بالخسائر الجانبية، فجرائم القتل هذه هي حالات كان منفذوها يحاولون قتل هؤلاء الضحايا غير المتعاونين، وسيلةً منهم لتحقيق هدفهم النهائي. لقد قتلوا ضحاياهم عمدًا، إلا أن هذا لا يعني ضمنًا أنهم كنُّوا السوء لضحاياهم، أو تصرفوا من دون مبرر، من منطلق الكراهية. لم يستهدف سارقو البنك جماعة مضطهدة يذمونها، ولا كان السارقون يُنزِلون انتقامهم بأناس كانوا قد افتروا عليهم أو حطوا من شأنهم. كانوا ببساطة يفعلون ما كانوا بحاجة إليه لكي يهربوا بالأموال.

إذا صحت رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء حدية سيئة القصد، فإن أي أفعال من هذا القبيل سيتعذر اعتبارها في عداد الشر، على أساس أنها لم تُرتكَب بسوء قصد. قد يداهمكم هذا بوصفه النتيجة الصحيحة. ربما تكون هذه الأنواع من أعمال القتل الذرائعية أقل خطأ بدرجة يعتد بها من الأفعال سيئة القصد التي يرتكبها القتلة التسلسليون. ولكن بم تشعرون إذا رفعنا مقدار الضرر الواقع في هذه الأفعال الخاطئة ذات الدافع الذرائعي؟ تخيلوا حالة مجموعة كبيرة من الموظفين الحكوميين تكتشف صدفة برنامج تجسس سري تنفذه الحكومة. ولنفترض جدلًا أن برنامج التجسس هذا ليس في الواقع ذا نفع أخلاقي، ولكن بعض أعضاء الحكومة يظنون ظنًا خاطئًا، أنه شديد الأهمية. تخيلوا أن رئيس الشرطة السرية قرر ضرورة اغتيال هؤلاء الموظفين، عن بكرة أبيهم، في سبيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفادي الحرج العام وحماية البرنامج، فيأمر بتصفيتهم العاجلة. إنه لا يتصرف بسوء قصد نحو ضحاياه. فهو يرى عمليات القتل وسيلة مؤسفة لكن ضرورية لضمان غاية أخرى. فهل هذا القتل الجماعي غير شرير؟

بوصولنا إلى هذه المرحلة يفترض أن تكونوا قد أحطتم بالطرق التي قد نرُدُّ بها حجة الفكرة القائلة بأن سوء القصد مكون ضروري في الفعل الشرير. وحان الوقت للانتقال إلى النظر في المنافس التالي على الوسم النفسي للفعل الشرير، ألا وهو اللذة السادية. إنها تلذذ بمعاناة الآخرين، أو بإيذاء الآخرين أو التعدي على حقهم. اللذة السادية وثيقة الصلة بسوء القصد. فمن يكنون لنا سوء القصد عادة ما يتلذذون أيضًا بمعاناتنا، ويستمتعون بالتعدي على حقنا. وعلى الرغم من حقيقة أنهما كثيرًا ما يترافقان، فإن سوء القصد متمايز ومنفصل عن اللذة السادية. وأحيانًا يكن الناس نية سيئة للآخرين ولكنهم يجدون أنفسهم غير مستمتعين عند إيقاعهم الأذى بضحاياهم المكروهين. قد يجدون عملية إنزال هذا الضرر بسوء قصد كريهة، ربما كانت مرعبة أو دموية على نحو يصيب بالكرب. في حالات كهذه قد نقول إن المنفذين لم ينالوا سوى شفاء الغليل المقزز بإيذاء ضحاياهم، وهذا متمايز عن اللذة الشامتة من النوع الحاضر لدى كثير من القتلة التسلسليين، ولدى كثير من المتنمرين الأطفال في مساحات اللعب. يمكن لسوء القصد أن يحضر في الحالات التي تغيب فيها اللذة السادية، والعكس أيضًا يبدو ممكنًا. أحيانًا قد يؤذي أحد المنفذين ضحية لا بسوء قصد وإنما مجرد وسيلة لتأمين غاية أخرى، ثم يستغرب إذ يجد نفسه مستمتعًا بأن يشهد المعاناة التي يُنزِلها.

بينما طرح عديد من الفلاسفة أن سوء القصد هو الوسم النفسي للفعل الشرير، فقد أشار بعضهم الآخر للذة السادية عوضًا عن ذلك. ومن السهل أن نرى لماذا قد تكون هذه الاستعاضة جذابة. اللذة السادية استجابة عاطفية حاضرة في بعض حالات اقتراف الخطأ ولكن ليس فيها جميعًا، وحقيقة تلذذ الفاعل بإيذاء الضحية من دون وجه حق تبدو

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كذلك مفاقمة للخطأ. وقد نسمع شاهدًا مرتعبًا يقول: «لم يكتفِ بتعذيب السجين، بل استمتع بذلك!». وهناك عدد هائل من الأشرار النمطيين في عالم الأدب والسينما اللافتين بطريقة إظهارهم للذة السادية. نموذجيًا، يقول صناع الأفلام لجمهورهم إن شخصية بعينها شريرة بأن يصوروها فاركة يديها أو تقهقه شامتة وهي تتخيل خططها لإيقاع الأذى بالآخرين. هذا المجاز السينمائي المسمى «نياهاهاهاهاهاهاها» مألوف إلى حد كونه هدفًا سهلًا للمحاكاة الساخرة، كما نرى في حالة دكتور إيفل في سلسلة أفلام «أوستن باورز» أو مستر بيرن في «آل سيمبسون». فاعلو الشر، كما يقال لنا، ليسوا مجرد خاطئين، إنهم خاطئون يحبون ما يفعلون. ينبغي ألا نرتكب غلطة افتراض أن هذا النوع من النفسية خيالي فحسب. فكثيرون من القتلة التسلسليين - بدءًا من جون واين، ووصولًا إلى تد بندي، ودنيس رادر (قاتل «قيِّد، عذِّب، اقتل») - يستمتعون استمتاعًا جنسيًا جارفًا بتعذيب ضحاياهم ثم قتلهم. وبعض الجلادين العسكريين، الذين يبدأون بتلقي الأوامر بفعل ما يستوجبه انتزاع المعلومات من أسراهم، يطورون ذائقة تستمرئ ما يفعلونه ويبلغ بهم الأمر أن يسعوا وراءه سعيًا. هذه أمثلة على اقتراف الأخطاء المفزعة، المخيفة، الشنعاء. وهي أمثلة نموذجية مرشحة لتكون أفعالًا شريرة.

ومع ذلك، فكما هو الحال مع سوء القصد، ليس من المعقول ادعاء أن كل فعل خاطئ تصاحبه لذة سادية سيدخل بذلك في عداد الشر. فالخاطئون يمكن أن يستمتعوا استمتاعًا ساديًا بالنزر اليسير من المعاناة الذي تسببه الأخطاء الهينة التافهة. فليس من الشر إلقاء مزحة لئيمة عن صديقكم، حتى لو تلذذتم بحقيقة أنه يتلوى حرجًا. وتتمثل الرؤية الأكثر جاذبية في أن اللذة السادية شرط ضروري للفعل الشرير، وأن حدية الفعل الشرير لا بد من إدخالها في التعريف كشرط منفصل.

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء حدية سادية الطابع: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خطأ حديًا يستمد الخاطئ منه لذة سادية.

CamScanner

لهذه الرؤية مدافعوها الفلسفيون، ومنهم لورنس توماس. وتحظى رواية الأخطاء الحدية السادية كذلك ببعض التأييد من خارج المؤسسة الأكاديمية. أجرى عالم النفس فرد ألفورد مقابلات مع نزلاء السجون من أجل اكتشاف رؤاهم حول الشر. وهو يفيد بأن كثيرين من النزلاء رأوا أن الشر «لذة بالأذية وافتقار للندم». ولكن مرة أخرى، لا يمكننا اختبار تعريف فلسفي بمجرد البحث عن حالات تنسجم معه. لا بد أن نبحث أيضًا عن أمثلة مخالفة قد تُضعِف معقوليته. وفي حالتنا هذه ينبغي أن نسأل إن كانت هناك أخطاء حدية لا تصاحبها لذة سادية، لكنها تداهمنا بوصفها شريرة على الرغم من ذلك.

ولعل أقوى الأمثلة المخالفة لهذه الرؤية يمكن العثور عليها وسط الأفعال المرتكبة على يد مجرمي الحرب. من الواضح أن مجرمي حرب كثيرين يستمدون بالفعل لذة سادية من معاناة ضحاياهم. إلا أنه كما يبدو يوجد آخرون في هذه الفئة يرتكبون أخطاء مريعة بلا متعة، ولا يَخبُرون شيئًا أكثر من شفاء الغليل المقزز بأداء مهمة كريهة يظنون ظنًا خاطئًا أنها لازمة لهم. ومثلًا، يشير الفيلسوف جوناثان بنت إلى الخطب التي ألقاها القائد النازي هاينرش هملر التي يقر فيها هملر بأن الجنود الذين كانوا قد نفذوا عمليات إطلاق النار الجماعية للمساعدة في «إبادة العرق اليهودي» كانوا منخرطين في مهمة مُكرِبة وصعبة. قال هملر إن هؤلاء الجنود كانوا قد ناءوا بـ«عبء هائل» تطلَّب منهم مقاومة «الضعف البشري»، وإنه يجب عليهم الاعتناء بأنفسهم ليتفادوا «معاناة انهيارات عصبية». يبدو معقولًا أن المشاركين في فرق الموت النازية شعر بعضهم على الأقل بهذا، وتصرفوا من منطلق إحساس بالواجب ضال إلى حد مريع، من دون التلذذ السادي بالقتل الجماعي. لكن كثيرين منا يعتقدون أن عمليات القتل الجماعي غير السادية هذه تستحق الإدانة بالشر، ولو أن المنفذين وجدوا العملية برمتها وفي مجملها كريهة بعمق. وبعبارة أخرى، ليس كل مرتكب شر مماثلًا من الناحية النفسية لإيان برادي أو

دنيس رادر، اللذين انتشيا بالألم الذي أوقعاه. بعض الناس يرتكبون الشر من دون فرح. لو صح هذا، يجب علينا رفض رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء حدية سادية.

مرشح محتمل ثالث لوصفه بالوسم النفسي للفعل الشرير هو المكابرة في الأخلاق. لعل ما يميز الشرور عن الأخطاء غير الشريرة حقيقة أن مرتكبي الشر يعلمون أن ما يفعلونه خطأ، ويفعلونه على كل حال. يعتقد خاطئون كثيرون أن ما يفعلونه سليم أخلاقيًا. هؤلاء الأشخاص يكسرون القواعد الأخلاقية، لكنهم لا يعاندون في الأخلاق عن علم. وعلى النقيض، يستسلم الناس أحيانًا للغواية، ويفعلون عمدًا أشياء يعلمون أنها خاطئة أخلاقيًا، على سبيل المثال لأن كسر القواعد الأخلاقية سيسمح لهم بتجنب فضيحة عامة. هؤلاء أناس يعاندون في الأخلاق وهم يعرفون، ويفعلون ذلك لأسباب ذرائعية. ويحدث نوع آخر من المكابرة عند من يفعلون الشيء الخطأ عن علم، لأنه خطأ، متصرفين كمراهق جانح يريد أن يكتشف ما هي القواعد بالضبط ليكسرها. يمكن العثور على مثال أدبي بارز على هذا النوع من المكابرة الجانحة في قصيدة جون ملتون الملحمية «الفردوس المفقود»، حيث تروي قصة تمرد الشيطان على الرب. يقول شيطان ملتون:

لن نفعل الخير يومًا،
بل سنرى في الشر دومًا متعة مثلى،
فهو نقيض المشيئة العليا
لمن نقاوم ونناوئ(1).

ونجد مثالًا شهيرًا آخر على المكابرة الجانحة في «اعترافات أوغسطين»، عندما يروي أوغسطين أنه سرق في طفولته ثمرات إجاص من بستان. أغلب السرقات ذات دوافع ذرائعية، لكن أوغسطين يزعم أن سرقته كان يحركها تحديدًا هذا النوع من المكابرة:

إني قد عزمت على السرقة وحققت رغبتي ولا حاجة لي إليها...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سرقت ما كنت أملك أفضل منه وأوفر. لا طمعًا بالمسروق عينه بل حبًا بالسرقة والإثم... أحببت موتي وسقوطي بيد أني لم [أحب] ما جرني إلى السقوط؛ بل سقوطي ذاته أحببته! سقطتِ أيتها النفس في العار... وارتضيتِ بالفحش حبًا بالفحش[2].

كذلك فإن بعض القتلة التسلسليين من واقع الحياة مكابرون في الأخلاق، فيكتبون رسائل تهكمية إلى الشرطة، متباهين بانتهاكهم قواعد المجتمع. إحدى هذه الرسائل كتبها ديفيد بركوفيتز، القاتل التسلسلي الشهير بابن سام الذي أطلق النار على ست ضحايا أرداهم قتلى في نيويورك في عقد ١٩٧٠، وفيها نعت نفسه «بعل زبوب»، وذيَّلها بتوقيع «المخلص لكم في جرائم القتل، السيد وحش».

المكابرة في الأخلاق، تمامًا كسوء القصد واللذة السادية، يمكنها التجلي في أخطاء هينة وتافهة كما في أخطاء ذات شأن. ولهذا السبب لن يكون من المعقول الادعاء بأن كل فعل خاطئ يتصف أيضًا بالمكابرة يعد بذلك شريرًا. النظرية الأشد جاذبية في محيط هذه الفكرة تضم شرطًا منفصلًا يخص الحدية، كما يلي:

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء حدية مكابرة: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خطأ حديًا يعلم مقترفه أنه يكابر في الأخلاق.

Telegram:@mbooks90

وكما هو الحال مع الروايتين السابقتين، ففي هذا التعريف للشر بعض مواطن القوة. فهو يستخرج فئة فرعية من الأخطاء، ويفعل ذلك عن طريق خاصية مفاقمة للأخطاء: المكابرة. إنه لأمر مريع أن تحبس شخصًا بريئًا رغمًا عنه، ولكن الأسوأ من ذلك أن تحبسه عالمًا أن ما تفعله خطأ. إن المكابرة في الأخلاق تجعل هذا الفعل أكثر مدعاة للاستهجان مما سيكون في حالة أخرى. عندما نواجه اقتراف الخطأ كثيرًا ما نقول: «يُفترض أنه كان يعلم الصواب من الخطأ»، ولكننا عند تعلق الأمر باقتراف الخطأ من باب المعاندة، نقول: «كان يعلم الصواب من الخطأ، لكنه فعل ذلك في كل الأحوال!». يبدو أن ثمة ما هو منحرف بشكل مميز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويستحق اللوم في اقتراف الخطأ من باب المكابرة.

ادعى كل من ماركوس سنجر وروي بيريت أن المكابرة جزء ضروري من الفعل الشرير. وهناك اعتراضات قوية على هذه الرؤية. وستكون الأمثلة المخالفة المحتملة لهذا التعريف هي حالات اقتراف حدي لم يكن المقترف فيها يكابر في الأخلاق، أي حالات اقتراف حدي ظن فيها المقترف، ظنًا خاطئًا، أنه يفعل الصواب. حين نلتقي بأمثلة الإرهابيين ومجرمي الحرب، نرى أن عددًا ضخمًا منهم كانوا ينتهكون الأخلاق لكنهم لا يكابرون فيها، لأنهم ظنوا، ظنًا خاطئًا، أنهم كانوا يتصرفون لصالح العدالة. والحال أن كثيرًا من الإرهابيين ومجرمي الحرب يرون أنفسهم أبطالًا أخلاقيين، يخوضون معركة الخير. لم يُبدِ هتلر وغيره من القادة النازيين ندمًا. لقد ظنوا ظنًا خاطئًا أن أفعالهم البشعة مبررة. إن المكابرة في الأخلاق مفاقمة للأفعال الخاطئة، لكن كثيرًا من الأخطاء الأشد حدية واستحقاقًا للشجب لم تُرتكَب من باب المكابرة في الأخلاق. لا يتشارك جميع الخاطئين الأسوأ نوعًا في واقع الحياة التركيبةَ النفسية المميزة التي لشيطان ملتون. البعض يفعلون الشر بينما يظنون، ظنًا خاطئًا، أنهم يفعلون الخير. ويبدو هذا سببًا قويًا لرفض رواية الفعل الشرير بوصفه اقترافًا حديًا من باب المعاندة.

آخر مرشح لحمل صفة الوسم النفسي للفعل الشرير مرشح أعقد من سوء القصد ومن اللذة السادية ومن المكابرة. إذا تحدثنا على وجه التقريب، فسنعرّفه بأنه إسكات الاعتبارات التي يُفترض أن تَستبعد ارتكاب الأفعال الضارة. حين تُشاوِروا عقولكم بشأن ما يجب فعله فإنكم توازنون الأسباب الداعية إلى تنفيذ كل فعل من مختلف الأفعال المحتملة المتاحة أمامكم مقابل الأسباب الناهية عنه. بعض الأشياء تعد نموذجيًا أسبابًا وجيهة لتنفيذ فعل من الأفعال: أنكم ستستمتعون بفعله، أن الفعل سيكون مفيدًا للآخرين، أنكم ستجنون المال بفعله، أنكم ستتعلمون شيئًا بفعله، أنكم وعدتم بفعله، وهلمَّ جرًا. وبعض الأشياء الأخرى تعد

نموذجيًا أسبابًا تثني عن تنفيذ فعل من الأفعال: أنه سيضع صحتكم في خطر، أنه سيثقل على الآخرين بعبء مالي، أنكم وعدتم بألا تفعلوه، أنه سينتهك حقوق شخص آخر، وهلمّ جرًا. وكثيرًا ما تتوفر لفعل من الأفعال بعض الأسباب التي تُعد في صالحه في حين يعد غيرها ضده، وتقتضي مشاورة النفس نوعًا من المقايضة بين مجموعتين متنافستين من الأسباب مختلفتين في القوة.

تخيلوا أن الرئيس التنفيذي لشركة ما يمكنه أن يقرر بيع منتج بعينه يعلم أنه سيزيد أرباح الشركة زيادة هائلة، ولكنه أيضًا سيقتل أبرياء. تصر الفيلسوفة إيف جارار على أن حقيقة تسبُّب هذا الفعل، باعتبار ما سيكون، في حدوث وفيات لأبرياء هو سبب قوي قوة بالغة ضد فعله إلى حد أن الرئيس التنفيذي لا ينبغي حتى أن يوازن الأرباح المحتملة التي ستخسرها الشركة بسبب عدم الإقدام على الفعل. وعوضًا عن ذلك، كما تعتقد جارار، فحقيقة أن هذا الفعل من شأنه أن يؤدي إلى وفيات لأبرياء ينبغي أن تُسكت أي اعتبارات في صالح الفعل تطرحها مشاورات الرئيس التنفيذي. يجب أن تجعل الأرباح المحتملة في ذهنه في عداد اللاشيء. الفضلاء من الناس لا ينخرطون حتى في مشاورة النفس بشأن هل يقتلون الأبرياء في سبيل الحصول على أموالهم.

تستخدم جارار هذه الرؤية حول الإسكات كأساس تقيم عليه روايتها عن الفعل الشرير. وهي تعتقد بوجود نفسية متمايزة كيفًا وراء الأفعال الشريرة، نفسية غير حاضرة بالمرة في حالات ارتكاب الخطأ العادي. ففاعل الشر، وفقًا لجارار، لا يعطي وزنًا سلبيًا على الإطلاق لحقيقة أن الفعل سينجم عنه قتل الأبرياء أو إلحاق ضرر جدي بهم. والاعتبار الذي يجب أن يستبعد الفعل من بابه لا يحدث حتى أن يسجل حضوره في أعين فاعل الشر كشيء يعتد به. ويقترح فيلسوف آخر، آدم مورتون، نظرية مماثلة وفقًا لها يلتف مرتكبو الأفعال الشريرة على آلية تحفيزية شائعة تثبط العنف لدى أغلب الناس. وفي كلتا هاتين الروايتين، يتمثل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملمح المميز لفاعلي الشر في أنهم، عندما يشاورون أنفسهم بشأن هل يقومون بالأفعال الشريرة أم لا، لا تؤثر فيهم، أدنى تأثير، الأشياء التي يجب أن تستبعد فوزًا الفعل موضع البحث. ما يميز الشر عن ارتكاب الخطأ العادي، وفقًا لهذه الروايات، هو حقيقة أن الأفعال الشريرة تأتي من نوع محدد بدقة من انعدام الحساسية. تحدث الأفعال الشريرة حين لا يبالي الفاعل بتاتًا بالاعتبارات الأهم.

الرواية الإسكاتية للفعل الشرير: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، أسكت الفاعل اعتبارات يُفترض أن تستبعد تمامًا تنفيذ هذا الفعل.

هذا النوع من الإسكات حاضر في بعض حالات اقتراف الخطأ لا فيها كلها، ويمكن القول إنه مفاقم للأفعال الخاطئة، ولذا فإنه يطابق المعايير الأساسية ليكون الوسم النفسي للفعل الشرير. وعلاوة على ذلك، فإن بعض الأمثلة المثبتة شكليًا للفعل الشرير تنسجم انسجامًا حسنًا مع هذا التعريف. فكروا في القاتل التسلسلي الخيالي أنطون شيجوره، كما لعب دوره خافيير باردم في فيلم الأخوَين كوين «ليست بلدًا للعجائز». ما يداهم المشاهد بأشد وضوح هو عجز هذه الشخصية التام عن المبالاة بالأنفس التي تخمدها. ما يفترض أن يكربه، ما يفترض أن يصده، لا يحرك فيه شعرة. ويقال إن افتقارًا للاهتمام مماثلًا حاضر في أفعال كثير من مجرمي الحرب، ممن يقومون بالإبادة من دون حساب لعامل الحقوق الأخلاقية لمن يهلكونهم. ويقدم لنا القاتل التسلسلي الكندي كليفورد أولسن، من قتل أحد عشر طفلًا، مثالًا يجمد الأطراف على هذا الفشل في التأثر بما يصح أن يعتد به أخلاقيًا أشد الاعتداد. لدى سؤاله ماذا كان سيفعل لو أطلق سراحه من السجن، قال: «سأتابع من حيث توقفت». لدى سؤاله إن كان لم يتأثر بمعاناة أهالي الضحايا، رد أولسن: «لو كنت أعبأ مقدار ذرة بالآباء، ما كنت قتلت أطفالهم».

بينما تبدو هذه الأمثلة الوجيهة للأفعال الشريرة حالات أسكت فيها المنفذون الاعتبارات الأولى والأهم، فلكي نُقيِّم رواية الإسكات تقييمًا

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لانًا لا بد كذلك أن ندقق لإيجاد أمثلة مخالفة محتملة. فهل هناك حالات لما تبدو أنها أفعال شريرة لم يُسكِت فيها المنفذون الاعتبارات الأهم؟ لو فكرنا في الطيف الواسع من منفذي جرائم الحرب الإبادية، فمن المعقول أن قلة قليلة منهم قتلوا ضحاياهم من دون أن ينعدم تعاطفهم مع أولئك الضحايا واهتمامهم بأمرهم. فـ«الأينزاتسجروبن»، فرق القتل شبه العسكرية التي تركت وراءها أثرًا دمويًا عبر أوروبا الشرقية خلال الحرب العالمية الثانية، لم تكن مشكّلة على نحو موحد من رجال لا يلقون بالًا ولا يعملون حسابًا أبدًا لأرواح ضحاياهم اليهود. يشير المؤرخ كريستوفر براونتج إلى أن كثيرين من الضالعين عانوا وخزات أخلاقية بشأن ما كانوا يفعلون، لكنهم مضوا قدمًا من باب الولاء المتصور للجماعة، أو لأنهم أمروا بأن يفعلوا ذلك. بعض أبشع حالات اقتراف الخطأ وأكثرها حدية يرتكبها أشخاص يعطون وزنًا ما للأشياء التي تهم حقًا، لكنهم يظنون أن هذه الاعتبارات تجُبُّها شواغل أهم فيما يبدو. لو صحت الرواية الإسكاتية للفعل الشرير، إذن فوحدها جرائم قتل «الأينزاتسجروبن» المرتكبة عن طيب خاطر، ولم يَشُبها ترجيح المشاورة لإحدى الكفتين لدى المنفذين، وحدها تعد شريرة. ويداهم هذا الكثيرين منا بلامعقوليته.

تتعلق مشكلة أخرى تواجه الرواية الإسكاتية بقدرتنا على المعرفة عندما يُسكت فاعل اعتبارًا، مقابل أن يرجِّح كفته في مشاورته الذاتية. حين نفكر في جريمة القتل الجماعي التي ارتكبها «الأينزاتسجروبن»، كيف من المفترض أن نعلم أيًا من أعمال القتل الفظيعة هذه ارتكبها منفذون لم يعطوا وزنًا مطلقًا لأهمية أرواح ضحاياهم في مشاوراتهم الذاتية؟ كيف نميز هذه الأفعال عن تلك التي ارتكبها منفذون يشعرون بشيء من الصراع الداخلي، ويساورهم قلق طفيف بشأن معاناة ضحاياهم، ولكنهم شدوا الزناد على أي حال؟ هل يجب علينا القول إن من الوارد أن بعض عمليات القتل «الأينزاتسجروبنية» كانت شريرة،

لكن لا فكرة لدينا أيها كذلك؟ يعتقد نقاد الرواية الإسكاتية أن بعض أقبح الأفعال الخاطئة تنطلق من دوافع متصارعة، وأن هذه الأفعال شريرة على الرغم من اشتمالها على مشاورة ترجيحية لا إسكات الصوت الداخلي.

لقد رحنا نبحث الفكرة القائلة بأن الشرور تبرز وسط الأخطاء العادية بفضل النفسية المتمايزة لمرتكب الشر. ويبقى بعض الفلاسفة على موقفهم الذاهب إلى صحة هذا. غير أنهم، وكما رأينا، يشيرون إلى طيف من الملامح النفسية المختلفة حقًا. كل وسم من وسوم الفعل الشرير المزعومة هذه هو مفاقم للأفعال الخاطئة، ما يجعل كل رواية من هذه الروايات تبدو جذابة إلى حد ما. ومع ذلك، رأينا أيضًا أن هناك تحديات قوية يمكن إثارتها ضد أي من هذه الروايات. إذا كان يفترض بمفهوم الفعل الشرير أن يلتقط فئة الأخطاء الأشد حدية، فثمة إذن تكلفة ذات شأن لتضمين دوافع محددة في تعريف الفعل الشرير. هناك ملامح مميزة كثيرة لفعل من الأفعال يمكن أن تجعله أسوأ من الناحية الأخلاقية، بما في ذلك شدة آثاره. وهكذا يمكننا دائمًا إيجاد أمثلة على أفعال خاطئة خطأ حديًا تفتقر إلى واحد من وسوم الشر النفسية المزعومة. فسوء القصد كفيل بجعل فعل خاطئ أسوأ مما سيكون عليه بغير ذلك، لكن بعض الأفعال الضارة ضررًا بالغًا والخاطئة على نحو مفزع ليست سيئة القصد. واللذة السادية والمكابرة والإسكات بدورها تجعل فعلًا خاطئًا أسوأ، لكن هناك أفعالًا خاطئة بالغة الضرر ومفزعة ليست جالبة للمتعة على نحو سادي، ولا مكابِرة، ولا مرتكَبة عن طيب خاطر. ولهذا السبب، يعتقد بعض الفلاسفة أن من الخطأ محاولة تعريف الفعل الشرير بطريق الإحالة إلى نفسية فاعل الشر. ويعتقدون، بدلًا من ذلك، أن الأفعال الشريرة يمكنها أن تصدر عن طيف واسع جدًا من الدوافع، وأن فاعلي الشر ليسوا كلهم متشابهين نفسيًا. وهذه هي المقاربة التي سوف نشرحها في الفصل الرابع.

٤

ابتذالية الشر

إحدى العبارات الأشد حضوزا في الذاكرة من حياة القرن العشرين الفكرية، والتي صكتها حنة آرنت في كتابها الصادر عام ١٩٦١ «أيخمان في أورشليم»، هي «ابتذالية الشر». لهذه العبارة صدى أليف مريح، ومن الواضح افتراض العمق فيها. حين نسمعها تقال، يومئ الكثيرون منا موافقين بحكمة الحكماء. ولكن ما الذي تعنيه؟ في هذا الفصل سنرى كيف ينبغي تفسير عبارة آرنت الشهيرة، ونتتبع تأثير التحليل الذي قدمته آرنت لمحاكمة مجرم الحرب النازي أدولف أيخمان. لقد أدت دعاوى آرنت بشأن أيخمان إلى رفض بعض الفلاسفة المعاصرين الفكرة القائلة بأن الاختلاف القائم بين الشر والخطأ لا بد أن يكون كيفيًا لا كميًا. وهم يرفضون الرؤية الذاهبة إلى أن كل فاعل شر يشارك في النوع نفسه من البنية التحفيزية المميزة، المشوهة، ويدعون بديلًا عن ذلك أن الأفعال الشريرة يمكن أن تصدر عن طيف واسع من الدوافع المألوفة، وترتكب أحيانًا على يد أناس عاديين مثلكم ومثلي.

قبل أن نشتبك مع أفكار آرنت حول الابتذالية، لدينا موقع أخير علينا أن نبحث فيه عن اختلاف كيفي بين الأفعال الشريرة والأخطاء العادية، ألا وهو آثار الأفعال على ضحاياها، أي بعبارة أخرى، أنواع الأضرار التي تُلحقها. تتوزع الأضرار على فئات فرعية متمايزة: إنزال ألم جسدي، تشويه، استعباد، اغتصاب، تعيير على الملأ، سرقة، حرمان من أشياء مهمة، وهلمَّ جرًا. أيمكن للمسألة أن تكون إلحاق الأفعال الشريرة ضررًا بضحاياها على نحو خاص، على نحو لا يتضرر الضحايا به أبدًا من الأخطاء العادية؟ لو صح هذا، لأمكن تعريف الفعل الشرير كفعل خاطئ يلحق هذا النوع الخاص من الضرر. وهذا اقتراح جذاب ببساطته. ومن

أجل استكمال النظرية، كل ما نحتاج إليه هو تحديد النوع الفريد من الضرر الذي يفرز الشرور من الأخطاء العادية.

غير أن المشروع برمته يتداعى ما إن نبدأ في تقييم الترشيحات. فهل الضرر المميز الناجم عن الأفعال الشريرة هو موت كائن بشري بريء؟ لو كان الأمر كذلك، فإن كل فعل خاطئ يسبب موت إنسان بريء سيعد شريرًا، وكل فعل خاطئ لا يسبب موت إنسان بريء سيكون دون الشر. كلا الادعاءين يبدو غير معقول بالمرة. بعض الأفعال الخاطئة التي تسبب وفيات بشرية هي حالات تمثل إهمالًا أو استهتارًا يستحق الإدانة. ولا شك أن هذه الأفعال مأساوية، وجدية، وخطيرة، ولكن كيف تُقارَن بحالة يُنزِل فيها جلاد سادي عمدًا ألمًا مروعًا بجماعة مرعوبة من الأسرى لسنوات وسنوات من دون أن يقتل أحدًا منهم؟ هل ما يبدو حقًا هو أن فعل القتل غير المتعمد الناتج عن الاستهتار شرير في حين أن أفعال التعذيب السادية المتكررة ليست كذلك؟ لعل الضرر المميز شيء آخر: تحطيم إرادة الحياة عند الضحية، أو عدم احترام ما يضعه الضحايا في مكانة التقديس. من الجائز جدًا أن يحطم جلاد إرادة الحياة عند ضحيته، ويمكن القول إن ما يفعله الجلاد شر. إلا أن منفذ تفجير انتحاري لا يحطم إرادة الحياة عند ضحاياه. إنه ببساطة يقتلهم قبل أن يدركوا ما الذي يحدث، ويمكن القول إن التفجير الانتحاري بدوره يستحق الإدانة بوصفه شرًا. وعلى نحو بديل، فلعل الإبادة هي الضرر المميز الذي يبرز اختلاف الشر. الإبادة اقتراف لخطأ مريع، ومنفذو الإبادة يرتكبون الشر، ولكن كذلك يرتكبه القتلة التسلسليون، الذين من الواضح أنهم لا يشرعون في إبادة أي جماعة عرقية. ولا تنحصر المشكلة في أن الأضرار تتفاوت من حيث النوع، فالمشكلة أن الأضرار الجدية والحدية تتفاوت من حيث النوع، وأن بعض الأضرار الجدية هي ببساطة نسخ من الأضرار الطفيفة أشد حدية على المستوى الكيفي. أي خطوة لحصر تعريف الفعل الشرير في الأخطاء التي تُحدِث نوعًا من الضرر محددًا في حدود ضيقة ستكون

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطوة ملغومة، لأن من المحتم وجود ضحايا آخرين لأخطاء أخرى حدية على مستوى خطير من الجدية من شأنهم أن يستثاروا من اقتراح أن ما فُعِل بهم لم يكن شرًا. في ضوء هذه الاعتبارات، ينبغي أن نرفض الفكرة القائلة بأن الشرور هي تلك الفئة الفرعية من الأخطاء المحدثة لنوع مميز من الضرر. وعلينا الانتقال إلى المنافس التالي.

يعتقد بعض الناس أن الأفعال الشريرة تتميز عن الأخطاء العادية من حيث آثارها، ولكن ليس من حيث إحداثها أثرًا من نوع مختلف كيفًا. فالأمر وما فيه أن الأفعال الشريرة تُحدِث ضررًا أكبر من الأخطاء العادية. يعتقد فلاسفة معاصرون عديدون، منهم كلوديا كارد وسوزان نيمان وبول فورموسا، أن الأفعال الشريرة تعد شريرة بسبب مدى شدة آثارها الضارة، لا بسبب أي نوع من النفسيات المشوهة المميزة للمنفذين. هؤلاء الفلاسفة متأثرون بحنة آرنت تأثرًا عميقًا، أو بمزيد من الدقة، بالرؤية التي تبنتها آرنت بعد عام ١٩٦٠. كانت آرنت في الأصل، في كتابها الصادر عام ١٩٥١ «أصول الشمولية»، قد ادعت أن الهولوكوست كشف عن وجود «شر جذري» لا يمكن أن تفسره الدواعي العادية المتمثلة في «تغليب المصلحة الذاتية، والطمع، والحسد، والغيظ، واشتهاء السلطة، والجبن». اعتقدت آرنت في بادئ الأمر أن فاعلي الشر لا بد أن يكونوا مختلفين نفسيًا عن بقيتنا، وأنهم لا بد أن يكونوا «أشباهًا للشياطين» أو «وحوشًا». هذه هي صورة الشر التي ظلت آرنت مقتنعة بها لتسع سنوات بعد ذلك إلى أن حضرت محاكمة أدولف أيخمان. كان أيخمان، وهو أحد منسقي الهولوكوست الأساسيين، قد أشرف على نقل ملايين اليهود بواسطة قطارات الترحيل إلى معسكرات الموت. وقد نجا من الحرب وفرَّ إلى الأرجنتين، حيث اكتشفه عملاء الموساد والشاباك وقبضوا عليه في ١٩٦٠. وفي عملية سرية جريئة، نُقل أيخمان إلى القدس، حيث عُقدت له محاكمة وحوكم على جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

توقعت آرنت، ومعها مراقبون آخرون كثيرون للمحاكمة، أن يكون

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

أيخمان تجسيدًا لـ«شر جذري»، أن يكون «ساديًا منحرفًا»، أو «وحشًا شاذًا» يحركه سوء القصد البالغ نحو اليهود. أما ما رأته في قاعة المحكمة فكان شيئًا غير متوقع حقًا. كان أيخمان هادئًا ولين الطباع أثناء إجابته عن الأسئلة. لم يُبدِ ندمًا، لكنه أحجم كذلك عن تحمل أي مسؤولية عن المذابح الجماعية. فقرار إبادة اليهود أخذه رؤساؤه، كما قال أيخمان على طول الخط متمسكًا بروايته، وكل ما كان يفعله هو فقط إطاعة الأوامر. عبَّر أيخمان بوضوح عن هذا الموقف في مناشدته طلبًا للعفو:

هناك حاجة إلى رسم خط فاصل بين القادة المسؤولين وأشخاص مثلي مجبورين على الخدمة كمجرد أدوات في أيدي القادة... أنا لم أكن قائدًا مسؤولًا، وبصفتي هذه فأنا لا أشعر بأنني شخصيًا مذنب.

رفضت آرنت، في كتابها «أيخمان في أورشليم»، رفضًا صريحًا أن يكون أيخمان قد امتلك نفسية شيطانية أو شاذة على نحو آخر:

لَكَم كان مريحًا لو أننا اعتقدنا أن أيخمان وحش... كانت المشكلة التي يمثلها أيخمان هي، على وجه التحديد، أن كثيرين جدًا يشبهونه، وأن هذه الكثرة من الناس لم تكن منحرفة ولا سادية، بل كانت وما زالت عادية على نحو مريع.

أفاد تقرير آرنت بأن أيخمان لم يكن الشرير النمطي من النوع المدفوع بسوء القصد نحو ضحاياه والمكابر في الأخلاق. ما كان مذهلًا بشأن عقل أيخمان هو ارتياح باله من عناء التفكير:

فباستثناء مثابرته الفائقة حرصًا على تقدمه الشخصي، لم تكن لديه أي دوافع... كل ما في الأمر أنه، إذا عبرنا عن المسألة بالكلام العادي، لم يدرك قَطُّ ما الذي كان يفعله... لم يكن غبيًا. كان انعدام التفكير وحده ـ وهو شيء لا يتطابق بأي حال من الأحوال مع الغباء ـ هو ما أهّله ليصبح واحدًا من أكبر مجرمي تلك الحقبة.

توجهت آرنت إلى محاكمة أيخمان متوقعة أن ترى وحشًا ساديًا، وسيئ القصد، ومنحرفًا، لأن هذا هو ما اعتقدت أن فاعل شر لا بد أن

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكون على شاكلته. وما إن وصلت إلى قناعة بأن أيخمان لم يكن يشبه ذلك من قريب أو بعيد، واجهت آرنت اختيارًا. كان بإمكانها أن تلتزم برؤيتها الأولى الذاهبة إلى كون جميع فاعلي الشر يتصرفون بدوافع من هذه الأنواع، وتخلص إلى أن أيخمان لم يرتكب شرًا. لكن هذه لم تكن استجابة آرنت. فعوضًا عن ذلك، تمسكت بكون أيخمان فاعل شر، وأجبرها هذا على رفض مفهومها وتصورها الأسبق عن الشر. وبعدها بسنوات وصفت آرنت هذا التغير في رؤيتها:

والحال أن رأيي الآن هو أن الشر لا يكون «جذريًا» أبدًا، أنه فقط حدي، وأنه لا يملك لا العمق ولا أي بعد شيطاني، ويمكن له أن يستفحل ويحيق الخراب بالعالم بأكمله تحديدًا لأنه ينتشر كالفطر على السطح(3).

في كتابها «أيخمان في أورشليم»، ادعت آرنت وجود «اعتماد متبادل غريب بين التخفف من عناء التفكير وبين الشر»، وأن شهادة أيخمان قد أماطت اللثام عن «ابتذالية الشر». وهذه هي العبارة التي دخلت إلى الوعي العام، والتي كثيرًا ما تُردد في سياق تحليل الهولوكوست، وكما يبدو، في كل نقاش صحفي أو أكاديمي حول اقتراف الخطأ الحدي. وعلى سبيل المثال، بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية وصف وارد تشرشل من قُتلوا في البرجين بأنهم «أيخمانات صغار»، وكان واضحًا ما يعنيه. كان تشرشل يقول ضمنًا إن الضحايا ربما يكونون قد بدوا موظفين بيروقراطيين نظيفي الأيدي لا أكثر، لكنهم كانوا في الواقع مساهمين يستحقون الإدانة في أخطاء كبيرة، وإنهم مثلوا ما يسمى بالقتلة من مكاتبهم وكانوا متورطين في الإبادة والإرهاب.

وإذا نحينا جانبًا ادعاء تشرشل المستفز، فلا بد أن نسأل إن كانت آرنت على حق أم لا بخصوص أيخمان وابتذالية الشر. حين نقول عن شيء إنه مبتذل، فنحن نوحي بأنه عادي، أو غير لافت، أو ممل، أو غير متميز. فكيف تسنى لآرنت الادعاء بأن الشر - اللاأخلاقية الأشد حدية وإثارة للغضب والرعب والفزع - أمر مبتذل؟ يعتقد البعض، ومن بينهم الصحفي

رون روزنباوم، أن آرنت ارتكبت غلطة فادحة بصكها ما دعاه «العبارة ذات الطابع المثقف الزائف الأكثر استهلاكًا وإساءة استخدام واستباحة في لغتنا». وإحباط روزنباوم مفهوم. فالقول بأن الشر ابتذالي يبدو أنه يقلل أهميته، وأنه يوحي بعدم استحقاقه للانتباه الشديد. وهذا شيء لا تريده آرنت ولا يريده نقادها. بل إن الأسوأ من ذلك وجود أدلة واضحة على أن آرنت كانت مخطئة للغاية في قراءتها لشخصية أيخمان. وقد وثق فلاسفة ومؤرخون من بينهم ديفيد سيزاراني وبيتينا ستانجنث أدلة على سوء القصد العميق لدى أيخمان حيال ضحاياه اليهود. فالوجه العلني الذي أظهره أيخمان في المحاكمة كان صورة مصقولة بعناية للبيروقراطي المطيع، في حين أن أيخمان، في عام ١٩٥٤، كتب أنه «سيذهب إلى قبره راضيًا بأنه جلب موت «خمسة ملايين يهودي»». ولاحقًا قال: «لو أننا كنا قد قتلناهم جميعًا، الثلاثة عشر مليونًا، لأسعدني ذلك ولقلت: حسن جدًا، لقد أهلكنا عدوًا». هذه ليست كلمات شخص يتبع الأوامر من دون تفكير. ومن هذه الناحية، على الأقل، أساءت آرنت تقدير الأمور. فأيخمان نفسه لم يكن واحدًا من الأيخمانات، صغيرًا كان أم كبيرًا، على النحو الذي تخيلته آرنت.

وباعتبار أن آرنت أخطأت بخصوص شخصية أيخمان ودوافعه، فما الذي يفترض بنا أن نفهمه من فكرة ابتذالية الشر؟ هل يمكننا أن نحدد في كتابات آرنت مواضع لسلسلة من الدعاوى حول فعل الشر، وأن نستخرج منها تعريفًا للفعل الشرير؟ هذه المهمة صعبة على نحو مفاجئ لأن ما تقوله آرنت عن الشر كثيرًا ما ينقصه الوضوح. ودفاعًا عنها نقول إنها لم تكن تحاول إبداع تعريف فلسفي دقيق للفعل الشرير. كانت آرنت منظرة سياسية تشتبك مع فظاعة كاسحة نُفذت ضد أبناء ملتها، وكتبت عن الشر على نحو انطباعي واستعاري إلى حد لا يستهان به. وعند نقطة بعينها يبدو أن ما تقترحه آرنت هو أن انعدام التفكير من النوع الذي ادعت أنها رأته عند أيخمان هو الوسم النفسي للفعل الشرير.

ووفقًا لهذه الرؤية، فكل مرتكبي الشر مطيعون من دون تفكير على النحو الذي كان عليه أيخمان. إلا أن هذا سيكون تعريفًا للفعل الشرير مخالفًا للبداهة السليمة، لأنه سيعني ضمنًا أن البيروقراطيين المطيعين عديمي التفكير الموجودين في أعماق محرك الآلة النازية سيرقون إلى مصاف مرتكبي الشر، أما القادة النازيون سيئو القصد وواضحو الرؤية ممن كانوا يقودون العملية برمتها فلم يرقوا إليه. وهناك وفرة من الأمثلة على القتلة التسلسليين، والإرهابيين، ومجرمي الحرب الذين يفكرون بوضوح شديد في الأضرار البالغة التي يوقعونها عمدًا بالضحايا الأبرياء، وغياب انعدام التفكير عن أفعالهم لا يقلل من شرها ولو أقل القليل. كان تد بندي مليئًا بالنقائص، لكن الطاعة عديمة التفكير لم تكن واحدة منها.

هناك طريقة أشد رأفة لكي نكوِّن من دعاوى آرنت تعريفًا للشر. كانت آرنت تقترح أن سوء القصد، أو السادية، أو المكابرة ليست من صفات كل شر، حتى ولو أن بعض الفعلات الشريرة يتوفر فيها كل هذا. ويتمثل إسهامها المميز في النقاش حول الشر في الفكرة القائلة بأن بعض (لا كل) مرتكبي الشر يتصرفون انطلاقًا من دوافع عادية ومن دون استيعاب حجم أفعالهم. تعتقد آرنت أن بعض أبشع الأخطاء (وليس كلها) لا تُرتكب من باب سوء القصد، ولا بلذة سادية، ولا مكابرة في الأخلاق. وبهذا المعنى يجب علينا فهم «الابتذالية» في سياق مناقشة الشر. فالقول بأن الشر ابتذالي لا يعني ضمنًا أن بعض الأفعال الشريرة عادية وغير لافتة، ولكن أن بعض الأفعال الشريرة تصدر عن دوافع عادية، وتُرتكب على يد أشخاص ليسوا على أقصى الهوامش المتطرفة من حيث التركيبة النفسية البشرية. لقد قبلت بهذه الرؤية للشر جماعة من الفلاسفة المعاصرين يتفقون جميعًا على أنه على الرغم من انسجام بعض مرتكبي الشر فعلًا مع النموذج النمطي لشخصية الشرير السادي سيئ القصد، فإن أفعالًا شريرة كثيرة أخرى ابتذالية بالمعنى ذي الصلة. فهؤلاء الفلاسفة، وقد رفضوا الفكرة القائلة بوجود وسم نفسي للفعل الشرير، يعتقدون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بإمكان تمييز الشرور عن الأخطاء العادية احتكامًا إلى مقدار الضرر الذي تسببه. الشر، كما تقول كلوديا كارد، «لا يُعرَّف بدافعه». إن «طبيعة الأضرار وشدتها، لا الحالات والأوضاع النفسية للمنفذين، [هي التي] تميز الشرور عن الأخطاء العادية». ويمنحنا هذا شيئًا من قبيل التعريف التالي للفعل الشرير:

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء بالغة الضرر: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان فعلًا خاطئًا بالغ الضرر.

يرقى إرهابيو الحادي عشر من سبتمبر إلى مرتكبي شر وفقًا لهذه الرواية، لأنهم ارتكبوا أفعالًا خاطئة أخلاقيًا كانت بالغة الضرر، ولكن يرقى إلى ذلك أيضًا البيروقراطيون أو الأذيال من موظفي الشركات ممن تُوقِع أفعالهم الخاطئة أضرارًا بالغة على الضحايا الأبرياء ممن لا يحملون هم حيالهم أي سوء قصد. لبعض مرتكبي الشر عقول مترعة بالكره والانتقامية، أما غيرهم من مرتكبي الشر فيفكرون في تحقيق أهدافهم في العمل ويحاولون ألا يُخيِّبوا ظن رؤسائهم فيهم. وكما أقرت آرنت، تُحرِّك الناس دوافع لارتكاب أفعال شريرة لمختلف أنواع الأسباب. الأفعال الشريرة أفعال خاطئة جدًا، وهي خاطئة جدًا نظرًا للمقدار البالغ من الضرر الذي تُوقِعه.

ولا شك في أن هذه المقاربة ستكون محبطة لمن أرادوا من مفهوم الشر أن يلتقط شيئًا مختلفًا اختلافًا بيِّنًا عن ارتكاب الخطأ العادي. إذا كان الفعل الشرير هو ببساطة اقتراف خطأ شديد الضرر، فلن يكون هناك خط فاصل حاد بين الأخطاء العادية والفعلات الشريرة. وعوضًا عن ذلك، ستكون هناك منطقة رمادية تضم الأفعال الشريرة نوعًا ما، أو المقاربة للشر. ومما يعوض هذه الخسارة وجود ميزة حقيقية في طرح تعريف للفعل الشرير من هذا النوع الواسع القائم على الضرر والمستوحى من آرنت. فهو يسمح بوجود تنويعة هائلة من الأفعال الشريرة، بينما يظل ممسكًا بمعنى حقيقة أن الأفعال الشريرة هي الأخطاء الأسوأ من ناحية

الأخلاق، وأنها تستحق منا أشد الإدانة الأخلاقية. يبدو جليًا أن الضرر الأشد أسوأ أخلاقيًا من الضرر الأقل، وأن ضررًا أكثر بكثير يستحق إدانة أقوى بكثير. وبينما يبدو هذا أشبه برؤية رشيدة، فإن بعض التحديات تُقبِل من بعيد. سوف نبحث الآن سلسلة من الاعتراضات التي يمكن إثارتها ضد رواية الفعل الشرير القائلة بالأخطاء بالغة الضرر، ونرى ما إذا كانت تستحق تعديل هذا التعريف قليلًا.

يركز الاعتراض الأول على الملومية. وأنا أدفع بأن لا معنى لقولنا لأحدهم: «كان ما فعلته شريرًا، لكنه لم يكن حقًا خطأك». الحكم على فعل بالشر يشمل الحكم بأن الفاعل مسؤول أخلاقيًا عن ذلك الفعل، وأن الفاعل ملوم، وأن الفاعل لم يكن لديه مبرر وجيه لارتكابه. دعونا نتراجع للحظة ونفكر في الأسس التي قد يقوم عليها تعذُّر ملومية الأشخاص. لنفترض أنك تمشي في الشارع، فيدفعك صاحبك العابث من الخلف، فترتطم بأحد المارّة يسير في الاتجاه المعاكس وتوقعه بقوة على الأرض. من الصحيح، بمعنى من المعاني، أنك أنت أوقعت هذا الشخص بقوة على الأرض، لكننا لن نُحملك مسؤولية ارتكاب ذلك. بل إن صاحبك العابث هو الملوم. هو من يُساءَل في الضرر الواقع. ونحن، في طائفة من الحالات الأخرى، نحكم بشكل مماثل بأن شخصًا أضر بغيره غير مستحِق للوم على فعله ذلك: عندما يوقع ذلك الشخص الضرر بينما هو مُسرنَم، أو يوقع الضرر تحت الإكراه أو بالابتزاز، أو يوقع الضرر في حادث عرضي تعذر تفاديه بشكل معقول. وفي حالات كهذه، فإن الشخص المُحدِث للضرر يصح عذره، أو يصح عذره جزئيًا، على فعله ذلك. بل قد نقول إن الشخص موضع البحث لم يفعل شيئًا خاطئًا بالمرة. وتتمثل مجموعة من الحالات أكثر تفجرًا في تلك التي تصرف فيها الشخص مسبب الضرر بجهل. فإذا كان طبيب لا يملك أدنى فكرة عن كون الدواء الذي يعطيه عالي الخطورة، فربما سيكون من غير اللائق تحميله المسؤولية عن الضرر الذي سيلحق بمفحوصيه، بالطبع ما لم يكن من واجبه أن يعلم

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بخطورته، وفي هذه الحالة يجوز أن نُحمّله المسؤولية بغض النظر عن أي شيء آخر.

قد لا يكون جليًا لماذا من شأن هذه الحقائق حول الأعذار أن تشكل تحديًا للمدافعين عن رواية الشر القائلة بالأخطاء بالغة الضرر. هذه الرواية تحصر بالفعل إمكان الارتقاء إلى مصاف الشر في الأفعال الخاطئة أخلاقيًا، ويمكننا ببساطة إضافة أن الأفعال الشريرة لا بد أن تكون خاطئة بمعنى أن الفاعل ملوم على أفعاله أكثر منه معذورًا فيما فعل. الأفعال الشريرة لا بد، بحكم التعريف، أن تكون من فعل مرتكب الشر. غير أن الأمور تزداد تعقيدًا بعض الشيء هنا. فأحيانًا يكون فعل من الأفعال خاطئًا أخلاقيًا، لكن الظروف تخفف أحقية توجيه اللوم إلى الفاعل من دون أن تُبرّئه تمامًا من اللوم. تخيلوا، على سبيل المثال، أن أمًا بمفردها فقيرة فقرًا مُيئسًا في صقلية قررت أن تعمل مخبرة لصالح المافيا كطريقة للهروب من الفقر وإعاشة أطفالها. وينتهي المطاف بالمعلومات التي تقدمها إلى تسهيل عدد لا يستهان به من الابتزازات وعمليات القتل العنيفة. قد تحكمون بأن أفعال هذه المرأة خاطئة، وبالغة الضرر، وأنها ملومة لاختيارها المشاركة. ما كان يجب أن تفعل ذلك! لكنكم قد تعتقدون أيضًا أن حالتها السابقة المتمثلة في فقر ميئس هي ظرف مخفّف للجريمة. لا شك أن حالات كهذه ستثير طيفًا مختلطًا من ردود الأفعال، لكن بعض الناس قد يعتقدون أن هذه المرأة، لو انعدمت تلك الظروف المخفّفة، ما كان استحقاقها للوم الحالي ليشبه، ولو من بعيد، استحقاقها للوم عندئذ. لعل أفعالها، على كونها بالغة الضرر، وعلى كونها خاطئة على نحو يستوجب اللوم، لم تكن شريرة، لأنها لم تكن تستحق اللوم عليها بالكامل. (استحقاق اللوم الكامل، في هذا السياق، لا يعني كونها الملومة وحدها. بل يعني كونها جديرة باللوم إلى أقصى حد، وليست متحملة لمسؤولية مقلّصة إلى حد يعتد به نظرًا لوجود ظروف مخفّفة).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحن أيضًا بحاجة إلى بحث مجموعة مماثلة من الحالات التي يجب فيها أن نُحمل خاطئنا المسؤولية عن بعض الآثار الضارة المترتبة على فعله الخاطئ، ولكن ليس عن آثار ضارة أخرى كانت غير معلومة مسبقًا، أو كانت خارج سيطرته. يمكننا وصف هذه بأنها أفعال خاطئة كارثية بشكل يتعذر العلم به مسبقًا. تخيل أنك في مزاج سيئ، ولكي تُفرج عن نفسك قررت أن تهين سائق الحافلة أثناء قيادته. هذا فعل خاطئ، وأنت مستحق للوم تمامًا عليه. ولكن افترض أن انتباه السائق تشتت بسبب إهانتك، وتسبب هذا في تصادم الحافلة، مما يسفر عن مقتل عشرين راكبًا. يتبين أن فعلك الخاطئ كان بالغ الضرر، ولم يكن هناك عذر أو حتى عنصر تخفيف قد يقلل مسؤوليتك عن فعل ما فعلت. يكفي ذلك لجعل فعلك يعد شريرًا، وفقًا لرواية الأخطاء بالغة الضرر. وفي واقع الأمر، مع ذلك، لا يبدو هذا الفعل شريرًا. فيجوز لنا أن نقول في هذا الموقف إنك مسؤول عن الفعل الخاطئ، لكنك غير مسؤول عن آثاره بالغة الضرر وغير المعلومة مسبقًا. أعتقد أن من الواجب تنقيح تعريف الشر لاستبعاد حالات اقتراف الخطأ الحدي المخفَّف إلى حد يعتد به، ولاستبعاد حالات ارتكاب الخطأ الكارثي على نحو غير معلوم مسبقًا. ويتركنا هذا مع الآتي:

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء بالغة الضرر تستوجب اللوم: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان فعلًا خاطئًا بالغ الضرر، وحيث الخاطئ ملوم بالكامل على ذلك الضرر بحالته بالغة الشدة.

بعد هذا نحتاج إلى بحث بعض الألغاز الناشئة فيما يتعلق بالطرق المختلفة التي يمكن بها توزيع الآثار الضارة لفعلٍ ما على الضحايا. في أبسط حالات الفعل الخاطئ، هناك ضحية وحيدة تضررت. وعلى النقيض، فإن أفعالًا خاطئة كثيرة تضر ضحايا عديدين. فكروا في سرقة ملكية مشتركة، في التفجيرات الانتحارية، في إجازة قانون ظالم، وما إلى ذلك. إن رواية الشر الخاضعة حاليًا للنظر توحي بأن الفعل الخاطئ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيعد شريرًا فقط إذا أوقع مقدارًا من الضرر يتجاوز خط الحدية الفاصل. حين يضر فعل عدة ضحايا، فإن سؤال هل هو شرير سيدور حول كم أحدث من الضرر في المجمل. يبدو هذا غير إشكالي في حالة التفجيرات الانتحارية. فقتل كل فرد من الضحايا يضيف إلى مجموع الضرر ليعظم مقداره. وتنشأ المشكلة فيما يتعلق بالأفعال التي توقع فقط مقدارًا ضئيلًا من الضرر على كل فرد من الضحايا، لكنها توقع هذا الضرر الصغير على عدد هائل من الضحايا، ومن ثم فإنها توقع مقدارًا بالغًا من الضرر في المجمل.

دعونا نقارن بين حالتين لأشخاص يُنزِلون الألم بآخرين. ولمساعدتنا على عقد هذه المقارنة، افترضوا أن ألمًا خفيفًا، مزعجًا بدرجة طفيفة، يدوم عشر دقائق، يعد وحدة واحدة من الألم، وأن ألمًا يماثله مرتين في الشدة يعد وحدتين من الألم. أولى الحالات المطروحة للبحث أمامنا هي حالة جلاد يوقع، من دون وجه حق، لنقل مثلًا، خمسة ملايين وحدة من الألم على شخص واحد. هذا المقدار من الألم ساحق، ومحطم للمعنويات تمامًا، ومفجع للضحية بمفردها. هذا الفعل بالغ الضرر، وبالغ الخطأ بما لا جدال فيه. أما الحالة الثانية فهي حالة شخص يرتكب فعلًا واحدًا يوقع، من دون وجه حق، مقدار وحدة واحدة من الألم على خمسة ملايين ضحية واحدًا واحدًا. إن الوحدة الواحدة من الألم هي حقًا خفيفة وسريعة. لكن هذا الفعل الثاني يسبب بدوره خمسة ملايين وحدة من الألم في المجمل، فيتبين أنه مضر بقدر ضرر الفعل الأول تمامًا. ومع ذلك، سيحكم أناس كثيرون بأن هذا الفعل الثاني أقل خطأ بكثير من الأول، ولن يرقى إلى مصاف الشر. فماذا لو أن بإمكانكم التدخل لمنع الفعل الأول أو لمنع الفعل الثاني، من دون أن يكون بإمكانكم منع كليهما؟ أما كنتم ستختارون إيقاف تعذيب شخص واحد بريء، وترك ملايين البشر يتحملون ألمًا سريعًا ومزعجًا إزعاجًا طفيفًا بدلًا منه؟

إن مسألة كيف نحسب مجموع الأضرار مسألة صعبة فلسفيًا، وهي

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليست مجرد مشكلة تخص بعضنا ممن يحاولون الإفادة برواية للشر. وردًا على الأمثلة السابقة، قد يغريكم القول بأن عددًا هائلًا من الآلام الخفيفة لا يمكن أن يتمم مجموعها مقدارًا من ألم يفوق وزنه ألمًا بالغًا يشعر به شخص بمفرده، لكن هذه ستكون نتيجة مفاجئة. لم لا يمكن حساب مجموع الآلام؟ ليست غريبة عليكم بلا شك الحالات التي يقرصكم فيها أحدهم، فيوقع بعض الألم، ثم يزيد ضغط القرصة، لينزل قدرًا إضافيًا من الألم. إذا سلمتم بأن الآلام يمكن الإضافة إليها بالجمع لتنتج مزيدًا من الألم، فقد تجربون خطوة مختلفة. يمكنكم المحاججة بأن مدى شدة الضرر (مقابل الألم) الواقع على ضحية واحدة في المثال الأول لا يمكن أبدًا أن يفوقه وزنًا مدى شدة الضرر الإجمالي اللاحق بضحايا كثيرين. ومن جديد، يبدو هذا غريبًا. لعل الاستجابة المثلى هي القول بأنه أحيانًا يكون إيقاع ضرر يتجاوز خطًا فاصلًا معينًا من الشدة بضحية واحدة خاطئًا أكثر مما لو أنزل ضرر إجمالي أعظم يوزع على ضحايا كثيرين بحصص خفيفة. أذية شخص واحد أذية كبيرة أسوأ أخلاقيًا مما لو أوذي الكثير من الناس قليلًا جدًا. ويوحي لنا هذا بالمراجعة التالية لتعريفنا للفعل الشرير:

رواية الفعل الشرير بوصفه أخطاء بالغة الضرر على الفرد تستوجب اللوم: الفعل يعد شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خطأ بالغ الضرر لضحية واحدة بمفردها على الأقل، وحيث الخاطئ ملوم بالكامل على الضرر بحالته بالغة الشدة.

أعتقد أن هذه هي الكيفية التي يصح أن نستجيب بها للغز الأخطاء التي توقع أضرارًا هينة كثيرة جدًا موزعة بحصص خفيفة، لكن هذه رؤية ملغومة. ولا شك أن أشخاصًا كثيرين عقلانيين ومطّلعين سيختلفون معها. وقد يقولون بدلًا من ذلك إن الأفعال من هذا النوع تكون خاطئة بالقدر نفسه، بشعة بالقدر نفسه، تستحق الدرء بالقدر نفسه، الذي لأفعال توقع قدرًا بالغًا من الضرر على ضحية بمفردها. هذا الاعتراض متصل

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

ببعض الحالات من واقع الحياة. فكيف ينبغي أن نُقيّم مدى الخطأ في إجازة سياسيٍّ مشروعَ قانون جديد يزيد صعوبة حياة ملايين البشر زيادة طفيفة، عند مقارنته بقاتل تسلسلي ينهي حياة بضعة أشخاص فقط، لكنه يفعل ذلك على النحو الأشد فظاعة؟

لغز آخر ينشأ أمام هذا التعريف للفعل الشرير القائم على الضرر، وهو لغز يتعلق بمجموعة من الأفعال التي تبدو بالغة الخطأ أخلاقيًا، مع أنها لا تسبب أي ضرر مطلقًا. وهذه حالات أشخاص يحاولون قتل ضحايا أبرياء كثر، لكنهم يفشلون من جراء سوء الحظ. فكروا في ريتشارد ريد، المسمى بمفجر الحذاء، والذي، في عام ٢٠٠١، شرع في تفجير قنبلة مخبأة في حذائه أثناء قيامه برحلة طيران كواحد من الركاب فوق المحيط الأطلسي. لو نجح ريد، لكان قد قتل مئات الأبرياء. غير أنه، لحسن الحظ، لم ينجح. فبينما كان يمسك بعود ثقاب مشتعل ويحاول إشعال فتيل القنبلة، تدخل ركاب آخرون وقيدوا حركته. لم يوقع فعل ريد ضررًا بالغًا، على الرغم من نياته. ومع ذلك، فإن ما فعله كان خاطئًا خطأً بالغًا جديًا جدية خطيرة. دعونا نسمي هذه الأفعال محاولات فاشلة عديمة الضرر. يعاقِب الناس عقابًا شديدًا على محاولات فاشلة عديمة الضرر، كما ينبغي لهم أن يعاقِبوا. وحين نركز على سؤال المسؤولية الأخلاقية، فمن الصعب أن نحدد موقع اختلاف مهم بين محاولة ريد الفاشلة لتنفيذ التفجير الانتحاري وبين محاولة ناجحة. كان ريد ببساطة سيئ الحظ، فالطقس الممطر في يوم الرحلة كان قد رطّب الفتيل بحيث ما كان ليشتعل. والفلاسفة الذين يعرفون الفعل الشرير بوصفه أخطاء بالغة الضرر تستوجب اللوم يتبين أنهم ألزموا أنفسهم بالرؤية الذاهبة إلى أن ريد لم يرتكب أي شر أثناء تلك الرحلة، لأن فعله الخاطئ لم يسبب ضررًا بالغًا. أما أنا فأذهب إلى وجوب ضم فعل ريد، إلى جانب الكثير من المحاولات الأخرى الفاشلة عديمة الضرر، إلى فئة الشر. فهذه الأفعال خطيرة، وتستحق الإدانة، وخاطئة أخلاقيًا، بقدر ما تكون المحاولات

الناجحة.

وبالإضافة إلى المحاولات الفاشلة عديمة الضرر، دعونا نبحث نوعًا محتملًا إضافيًا من الفعل الشرير عديم الضرر. وهذه هي الحالات الخاصة بما قد نسميه التلصصية السادية الحدية ولكن عديمة الضرر. المتلصص شخص يحب الفرجة. أما المتلصص السادي فشخص يستمد متعة من الفرجة على معاناة الآخرين. وفي واقع الأمر، فإن متلصصين ساديين كثيرين يستمتعون كذلك بالتسبب في معاناة الآخرين. القتلة التسلسليون الذين يعذبون ضحاياهم، على غرار فريد ويست ودينس ريدر، يندرجون في هذه المجموعة، وأفعالهم بالغة الضرر هي حالة واضحة لفعل الشر. ولكن ما الذي يجب علينا قوله بشأن أفعال التلصص السادية حيث لا يتسبب المتلصص ولا يسهم في أي من المعاناة التي يستمد متعة عظيمة من الفرجة عليها؟ تخيلوا شخصًا يستمد طوعًا ومن كل قلبه متعة شديدة من الفرجة على المعاناة البالغة للضحايا العالقين في حطام حوادث تصادم السيارات، ولكنه لا يفعل ذلك إلا سرًا، ولا يفعل ذلك إلا حيث ينعدم ما يمكنه فعله لمساعدة الضحايا. يمكن القول إن فعله عديم الضرر. لا علم للضحايا بما يفعله، ومن هنا فهم غير منزعجين بالمرة منه. ومع ذلك، فإن هذا النوع من التلصص السادي، حين يتوجه نحو المعاناة البالغة، يكون مقيتًا من الناحية الأخلاقية. وقد يجوز للبعض القول بأن هذا النوع من السلوك مريع ومنحرف ومنفر، ولكنه ليس جديًا بما يكفي من الناحية الأخلاقية لكي يعد شريرًا. إنه لا يؤذي أحدًا، في نهاية المطاف، ولا يحاول أن يؤذي أحدًا، ولا يضع أحدًا في موضع خطر. وقد يستبشع آخرون هذا النوع من التلصص السادي الحدي بما يكفي ليحكموا عليه بأنه شر بدوره، حتى لو لم يُلحق ضررًا بأحد.

افترضوا أننا نريد من تعريفنا للفعل الشرير أن يضم المحاولات الفاشلة عديمة الضرر، وربما حتى أفعال التلصص السادية الحدية عديمة الضرر. سيتطلب هذا تعديلًا أخيرًا واحدًا على تعريف الفعل الشرير. ما تشترك

فيه المحاولات الفاشلة عديمة الضرر والتلصص السادي الحدي عديم الضرر هو أن كليهما أفعال متصلة على نحو سيئ أخلاقيًا بالأضرار البالغة الفعلية أو المحتملة. إنها أفعال إما أن الفاعل يحاول فيها أن يوقع أضرارًا بالغة، أو أنه يستسيغها بكل قلبه عندما تقع بالفعل. يمكننا أن نسجل هذه النقطة عن طريق الدعوى بكون الأفعال الشريرة متصلة على نحو لائق بالأضرار البالغة الفعلية أو المحتملة. (وعبارة «متصلة على نحو لائق» لا تعني بالطبع متصلة على نحو حسن أخلاقيًا بتلك الأضرار، وإنما متصلة على نحو ذي صلة بالشر). لقد أضفت شروطًا كثيرة كثرة بالغة إلى التعريف بحيث إن التسميات قد أصبحت غير سلسة الاستعمال، لذا سأقدم لكم هذا ببساطة بوصفه رؤيتي النهائية:

يكون الفعل شريرًا إذا، وفقط إذا، كان خطأ بالغ الضرر بضحية واحدة على الأقل، وكان الخاطئ ملومًا بالكامل على الضرر بحالته بالغة الشدة، أو كان فعلًا متصلًا على نحو لائق بضرر بالغ فعلي أو محتمل من هذا النوع، وكان الفاعل ملومًا بالكامل على ذلك الفعل.

المراد من هذا أن يلتقط كل حالات، وفقط حالات، اقتراف الخطأ من النوع الأسوأ أخلاقيًا. قد يبدو هذا تعريفًا معقدًا إلى حد غير هين، لكن الفكرة العامة قد تكون ملتقطة في الشعار التالي: الأفعال الشريرة أخطاء بالغة تستوجب اللوم. لو كانت هذه طبيعة الأفعال الشريرة، فإن المؤمنين دينيًا والملحدين على السواء يمكنهم الاتفاق على وجود الشر. الإيمان بواقعية الشر يتطلب الإيمان بوجود الأفعال بالغة الخطأ أخلاقيًا من هذا النوع، لكنه لا يتطلب الإيمان بالشياطين أو المس الشيطاني. غير أنني أتمنى أن يكون هذا التعريف للفعل الشرير جذابًا كذلك لمن يؤمنون فعلًا بالكائنات الخارقة للطبيعة، ومن قد يؤمنون بأن بعض الكائنات الخارقة للطبيعة قد ارتكبت أفعالًا شريرة. وبهذا المعنى، فإنني أقدم رواية علمانية للشر.

غني عن القول إن تعريفي المحبذ للفعل الشرير لا يحظى بالقبول

المعمم عند الفلاسفة الآخرين. بعضهم يعتقد أن الفعل الشرير يجب تعريفه من حيث ردود الأفعال التي يبثها في المراقبين، فالأفعال الشريرة شريرة بسبب ما تشعرنا به. ويعتقد آخرون أن آرنت كانت مخطئة، وأن واحدًا أو أكثر من الوسوم النفسية للشر لا بد من إدخاله في صميم تعريفنا، وأن الأفعال الشريرة شريرة لأنها تصدر عن مجموعة متمايزة من الدوافع الملتوية. ويعتقد البعض بوجوب أن نلزم الجانب الخاص بنسخة مبسطة من رواية الأضرار البالغة، تترك خارجًا التعديلات التي أضفتها المتعلقة بالملومية، والأضرار الموزعة بحصص خفيفة، والأفعال الشريرة عديمة الضرر. لقد حاولت أن أقدم هذه الرؤى البديلة وأُقيّمها على نحو منصف، ولكن ما من شك في أن مخالفيّ سيميلون إلى الرد محاججة دفاعًا عن الرؤى الخاصة بهم. إن السجال حول طبيعة الفعل الشرير أبعد ما يكون عن أن ينتهي.

وهناك إمكانية أخرى يصح أن يأخذها الفلاسفة بجدية وهي انعدام رواية مُثلى واحدة للفعل الشرير. فبينما خضنا طريقنا وسط النظريات المتنافسة بالتصدي لها، خاطبت فيكم بدائهكم بشأن ما إذا كانت أفعال بعينها شريرة، أو أسوأ أخلاقيًا من غيرها، أو تستحق منا أشد الإدانة. وهذه المنهجية كثيرًا ما تقودنا إلى مراجعة رؤانا والتلاقي عند مفهوم مشترك للمسألة المتناوَلة، لكن لها حدودها. ومن شأن الأشخاص المختلفين أن يحوزوا بَدائِهَ شتى حول بعض الحالات على الأقل، ومن المحتمل أن تمكث هذه الاختلافات بعد أن نكون قد اشتبكنا في نقاش فلسفي لكل النظريات المتبارية وكل الأمثلة ذات الصلة. إذا كان مستوى الخلاف كافيًا، قد ننتهي إلى القبول بوجود تصورات عديدة متمايزة ولكن ذات جدوى عن الفعل الشرير تدور في التفكير اليومي، وبأن مفهومًا واحدًا منها لا يقترب من تصويب الأمور أكثر من منافسيه. وإذا قبلنا هذا النوع من التعددية المفاهيمية فيما يتعلق بالفعل الشرير، فإن بعض الخلافات ذات الشأن فيما يبدو حول ما إذا كان يصح إدانة فعل

محدد بالشر سيتبين أنها مجرد اعتراضات لغوية، أي ستمثل حالات يكون فيها المتنازعون متفقين فعليًا على الحقائق الأخلاقية كلها، وببساطة يستعملون كلمة «شر» لتعني أشياء مختلفة.

حتى لو انتهى بنا المطاف تعدديين مفاهيميين بشأن الفعل الشرير، فإن عملية تمييز كل التعريفات المتنافسة للفعل الشرير وتقييمها تبقى نافعة. نحن بحاجة إلى التواصل بوضوح مع بعضنا حين نقيم الأخطاء الأخلاقية الحدية، وحين نناقش كيف يصح أن نستجيب لهذه الأفعال الشنيعة. حين يدعو أحدهم فعلًا من الأفعال بالشرير، من المفيد جدًا أن نسأل ما إذا كانوا يقصدون القول ضمنًا إنه وقع بتأثير فاعل خارق للطبيعة، أو إذا ما كان قد ارتُكب بسوء قصد، أو إذا ما كان قد ارتُكب بلذة سادية، أو إذا ما كان يبث الرعب، أو إذا ما كان عصيًا على الفهم، وهلمّ جرًا. بطرحنا هذه الأسئلة، تتحسن قدرتنا على تبيُّن ما نختلف حوله بالضبط، وما يعد أرضية مشتركة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخص شرير

بدأنا هذا التحقيق في طبيعة الشر من خلال الاشتباك مع تحدٍ تشكيكي. يؤمن المتشككون بأن الصواب والخطأ الأخلاقيين حقيقة، أما الشر فيعتقدون أنه غير موجود خارج عالم الخيال، ومن هنا يخلصون إلى أن مفهوم الشر يجب ألا يكون له مكان في الفكر الأخلاقي المعاصر. وفي الفصول السابقة عرضت ما أتمنى أن يكون رواية علمانية معقولة للفعل الشرير، وفقًا لها تدخل أفعال كثيرة من العالم الحقيقي في عداد الشر، بما في ذلك الفظائع المرتكبة على يد القتلة التسلسليين ومجرمي الحرب. وبينما يتصدى هذا بالفعل لسؤال هل الشر حقيقي، فأنا لم أشتبك بعد مع نوع آخر من الاعتراضات أثاره المتشككون، ألا وهو أنه من المتلف أخلاقيًا للناس ومن الخطر أخلاقيًا عليهم أن يفكروا على أساس الشر. وفي هذا الفصل سوف نستكشف هذا التحدي التشكيكي الخاص. سأحاول أن أبين أنه متصل بالسؤال عما يتطلبه أن يكون أحدهم شخصًا شريرًا. وكما سوف نرى، هناك اختلاف كبير بين الحكم على أحدهم بأنه قد ارتكب فعلًا شريرًا وبين الحكم بأن أحدهم شخص شرير. للحكم الأخير مضامين إضافية، وكثيرًا ما يصدر بسرعة بالغة، من دون اعتبار لائق للأدلة. سأدعي أن الخطر الحقيقي يكمن في هذه العجلة لنفض الأيدي من الخاطئين بوصفهم أشرارًا، لا في استعمال مفهوم الشر في حد ذاته.

قد تكونون على علم فعلًا بالفكرة الذاهبة إلى أن استعمال مقولة الشر خطر أخلاقيًا. الإدانة الأوتوماتيكية لخصوم المرء بأنهم أشرار ـ الظن بأن «كل من يختلف معي هو هتلر» ـ تتعرض للسخرية على الإنترنت على الدوام، كما تستحق. هذا النوع من العدوانية الأوتوماتيكية المعطوبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وظيفيًا يغلق باب الحوار، ويوقف قدرتنا على التعلم من اختلافنا. لعلكم أيضًا مُلمُّون بانتقاد سياسي أكثر جدية لأولئك الذين يستعملون لغة الشر في توصيف الغرباء عن المجتمع، ومنهم اللاجئون وأبناء الأقليات الاجتماعية والدينية. وفقًا لهذا الخط في التفكير، فنحن حين نستعمل لغة الشر نُشيطن خصومنا، نعامل أعضاء جماعة الأغيار كما لو كانوا كائنات خبيثة سيئة القصد تدبر المخططات ضدنا. نجردهم من إنسانيتهم، نراهم وحوشًا أو طفيليات. نشطبهم كأشياء واجبة التدمير. وبما أنه من الخطأ أخلاقيًا أن نعامل الناس بهذه الطرق، فلعل لدينا سببًا وجيهًا يثنينا عن استعمال لغة الشر. بعض الفلاسفة والمؤرخين، ومنهم فيليب كول وإنجا كلندينن، يزعمون أيضًا أن الناس يستعملون مقولة الشر كتفسير زائف لاقتراف الخطأ. حين ننظر إلى شخص شارك في الإبادة في رواندا ونقول: «لقد فعلها لأنه شرير»، فقد نعتقد اعتقادًا باطلًا أننا حددنا سبب اقترافه الخطأ، وأن ما من حاجة إلى تفسير إضافي للفظاعة. التفكير على أساس الشر قد يمنعنا من تحديد العوامل الاجتماعية والتاريخية المساهمة الكامنة في كثير من الأحوال خلف اقتراف الخطأ الحدي. وهو يهدد بجعلنا رجعيين، وإقصائيين، وثأريين، ومتبلدي الشعور.

هذا التحدي التشكيكي المتركز على الخطر الأخلاقي المتمثل في مفهوم الشر قد يداهمكم بوصفه أكثر أهمية وإلحاحًا في آن معًا من الادعاء القائل بأنه لا وجود لشيء من قبيل الشر في العالم الحقيقي. وهو يوحي بأن مفهوم الشر فكرة معدية تؤدي إلى تفكير أصابه المرض والفساد، وأننا لا بد أن نطهر عقولنا من مفهوم الشر وإلا ألحقنا بالضحايا الأبرياء أذى كبيرًا. لو صح أن استعمال مفهوم الشر قد أفرز كل هذه النتائج المريعة، لكان لدينا سبب قوي للتخلي عنه وإسقاطه. لكن بإلقاء نظرة إلى الوراء على الروايات الفلسفية للفعل الشرير التي بحثناها في الفصول من الثاني وحتى الرابع، فمن الصعب أن نرى لماذا ستكون للحكم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على فعل بالشر هذه الآثار. دعونا نبدأ بالفكرة القائلة إن استعمال مفهوم الشر يؤدي بكم إلى التفكير في مقترفي الخطأ كوحوش لاإنسانية. أوافق على أننا يجب ألا نفكر في القتلة التسلسليين ومجرمي الحرب والجلادين كبهائم خطرة موجودة خارج نطاق الإنسانية. جزء مما تعنيه إدانة فعل بالشر، كما زعمت، هو الحكم بأنه خطأ يستوجب اللوم، بأن المنفذ مسؤول أخلاقيًا عما فعله. الحكم بأن مجرم حرب على غرار أيخمان قد فعل الشر هو في الواقع غير متوافق مع الحكم بأنه مجرد مخلوق لاإنساني خطر لا يخضع للمساءلة الأخلاقية. لقد أظهر مرتكبو الشر افتقارًا للإنسانية بمعنى أن أفعالهم كشفت عن افتقار للطيبة والاحترام نحو إخوتهم البشر، لكن إدانة أفعالهم بالشريرة هي طريقة لتحميلهم المسؤولية كونهم بشرًا، وذوات فاعلة عقلانية، ومقترفين للخطأ.

وعلى نحو مماثل، من الصعب أن نرى لماذا من شأن الحكم بأن أحدهم قد فعل شرًا أن يؤدي بنا إلى شطب ذلك الشخص بوصفه لا يملك ما يشترك فيه مع بقيتنا، أو بوصفه لا خلاص له، أو بوصفه مستحقًا استحقاقًا تلقائيًا للإهلاك. الفلاسفة الذين يكتبون عن الشر يُجمِعون على الاعتراف بوجود أسباب معقدة للأفعال الشريرة، وبأن بعض منفذي الفعلات المفزعة على الأقل يخوضون نوعًا من الإصلاح الأخلاقي ويصلون إلى الشعور بالندم العميق على اقترافهم الخطأ. هناك مثال معروف على فاعل الشر النادم وهو الجندي الياباني السابق تاكاشي ناجاسي، الذي شارك خلال الحرب العالمية الثانية في تعذيب الأسرى. كان أحد أولئك الأسرى المعذبين هو الجندي البريطاني إريك لوماكس، الذي نجا ليؤلف سيرة ذاتية بعنوان «رجل السكك الحديدية»، الذي تحول بعد ذلك إلى فيلم من بطولة كولين فيرث. في هذا الكتاب يصف لوماكس لقاءه بناجاسي بعد الحرب بعقود. شعر لوماكس في أول اللقاء بغضب عارم نحوه، لكنه وصل في النهاية إلى أن يرى ناجاسي صادقًا في ندمه، وغفر له ما كان قد صدر منه. وهذا لا ينبغي أن يقودنا إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحكم بأن ناجاسي لم يكن فاعل شر في نهاية المطاف. وإنما يُرجح أن بعض الناس ممن يفعلون الشر قادرون على الانصلاح وعلى الخلاص الأخلاقي الجزئي على الأقل. إذا كانت هذه رؤية شائعة، فلماذا اعتقد كول وكلندينن أن استعمال مفهوم الشر سيقودنا إلى شطب الناس، أو إلى إساءة معاملة الغرباء، أو إلى غلق باب التساؤل عن أسباب اقتراف الخطأ الحدي؟

يكمن مفتاح حل هذا اللغز في ملاحظة وجود مفهومين متمايزين ولكن متصلين يشتغلان حين نستعمل لغة الشر. فهناك أولًا مفهوم الفعل الشرير، وثانيًا مفهوم الشخص الشرير. يعتمد الفلاسفة على هذا التمييز حين يشددون على أنه ليس كل فاعل شر شخصًا شريرًا. إذا تحدثنا بشكل تقريبي، فالفكرة هي أن الأفعال الشريرة شائعة بالمقارنة، أما الأشرار فنادرون. الشخص الشرير هو على نحو ما شخص سيئ بشكل خاص، وجدير بالشطب. تمامًا كما أن الفعل الشرير يقع في منطقة الفعل من النوع الأسوأ أخلاقيًا، فإن الشخص الشرير يفترض أن يقع في منطقة الأشخاص من النوع الأسوأ أخلاقيًا. وهذه حتى الآن مجموعة من المزاعم المشوشة إلى حد لا يستهان به. وسنكرس بقية هذا الفصل لاستكشاف مختلف الطرق التي حاول بها الفلاسفة أن يسدوا فجواتها ويقدموا رواية أدق عن معنى أن تكون شخصًا شريرًا. وسوف نعيد في طريقنا الاشتباك مع هواجس كول وكلندينن بشأن التكاليف الأخلاقية لاستعمال مفهوم الشر.

الفكرة القائلة بأنه ليس كل فاعل شر شخصًا شريرًا هي عينة من تمييز أعم بين ما قد نسميه تقييم الفعل وتقييم الشخص. وقد تلقَّى هذا التمييز الكثير من الانتباه في الحقل الفلسفي الخاص بنظرية الفضيلة، وسيكون من المفيد أن ننعطف انعطافة سريعة عبر نظرية الفضيلة قبل الرجوع إلى التركيز على الشر. يتمثل مدخل مفيد إلى نظرية الفضيلة في الإقرار بأننا كثيرًا ما نستعمل الكلمة الواحدة نفسها لتصنيف أنواع بعينها من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفعل وتصنيف أنواع بعينها من الأشخاص. يجوز لنا القول إن ناشطة الحقوق المدنية روزا باركس قامت بفعل شجاع حين جلست في مقدمة الحافلة، وإن روزا باركس نفسها كانت شخصًا شجاعًا. وعلى نحو مماثل، يجوز لنا القول إن تصرفات رئيس الولايات المتحدة ريتشارد نيكسون حين بدأ استجوابه حول «ووترجيت» كانت غير أمينة، وأن نيكسون كان شخصًا غير أمين. لو اكتفينا ببحث أمثلة كهذه، من المغري أن نخلُص إلى أن كل إنسان يقوم بفعل شجاع يعد بهذا شخصًا شجاعًا، وأن كل إنسان يقوم بفعل غير أمين يعد بهذا شخصًا غير أمين. ومن شأن تأمل أعمق أن يلقي بهذا في ظلال الشك. فكلنا نكذب أحيانًا على الأقل، لكن من الصحيح أيضًا أن هناك بعض الأشخاص الأمناء والجديرين بالثقة على نحو مثير للإعجاب، وغيرهم من عديمي الأمانة على نحو لافت. يمكن لشخص أمين أن يفعل فعلًا واحدًا فقط غير أمين، من دون أن يصبح بهذا شخصًا غير أمين. لا بد وبوضوح أن يكون هناك نوع ما من الاتصال بين فعل أفعال أمينة واتصاف الشخص بالأمانة، ولكن ماذا عساه يكون؟

إحدى الإجابات المحتملة على هذا السؤال هو أن أحدكم يعد شخصًا أمينًا إذا كان قد فعل عددًا كبيرًا من الأفعال الأمينة. وعلى نحو مماثل، فربما يعد شخصًا شجاعًا إذا كان قد فعل كثيرًا من الأشياء الشجاعة. يمكننا أن نسمي هذا نموذجًا تراكميًا للتقييم الشخصي حيث يعد الشخص سينيًا (س) إذا، وفقط إذا، كان قد فعل عددًا كافيًا من الأفعال السينية (الأفعال س). فإذا جُمعت الأفعال وبلغ مجموعها ما يتجاوز الخط الفاصل، صار الشخص مندرجًا تحت ذلك التصنيف. وهناك بعض الفئات من الأشخاص التي تبدو منسجمة في النموذج التراكمي. فأنت تعد سائقًا بطلًا في «الفورمولا وان» إذا كنت قد فزت بعدد من سباقات «الفورمولا وان»، مثلًا، وتعد محسنًا ماليًا إذا كنت قد تبرعت بقدر من المال يعتد به.

وفي حين أن هذا النموذج التراكمي من التقييم الشخصي جذاب

ببساطته، يبدو أنه ليس النموذج الصحيح للتصنيفين المتمثلين في اتصاف الشخص بالأمانة أو اتصافه بالشجاعة. تتمثل إحدى المشكلات في أن فعل عدد كبير من الأفعال الأمينة ليس كافيًا ليجعل منك شخصًا أمينًا. فحتى المحتال الأشد استحقاقًا للازدراء قال الحقيقة في عدد ضخم من المناسبات، عند الإجابة على الأسئلة اليومية، وعند إخبار الناس كم الساعة الآن، وعند التخطيط للأفعال السيئة مع شركاء المؤامرة، وهكذا. كل المحتالين يقولون عددًا هائلًا من الأشياء الصادقة، لكننا ما كنا لنصفهم بالأمناء. وتتمثل مشكلة أخرى في أن أحدهم قد يعد شجاعًا حتى لو لم يفعل الكثير جدًا من الأفعال الشجاعة. تخيلوا واحدة من المحظوظات بما يكفي للعيش في بيئة آمنة جدًا حيث يندر وقوعها في الخطر. إنها نادرًا جدًا ما تحتاج إلى مقاومة الخوف لكي تنجز أهدافها. لو كانت قد وُضعت في بيئة خطرة، لنفترض ذلك، لكانت قطعًا قد قاومت خوفها وتصرفت بشجاعة. إنها شخص لم يفعل عددًا كبيرًا من الأفعال الشجاعة، ولكن يبدو معقولًا مع ذلك أنها شخص شجاع على نحو مثير للإعجاب. هي تتحلى بالشجاعة، ولكن لم يُطلب منها كثيرًا أن تستخدم شجاعتها. حين يتعلق الأمر بأشياء من قبيل الشجاعة والأمانة، فإن العلاقة بين تقييم الأفعال والتقييم الشخصي لا تنسجم مع النموذج التراكمي. أن يكون الشخص شجاعًا وأمينًا أمر ليس ببساطة مسألة فعل كثير من الأشياء الأمينة والشجاعة.

Telegram:@mbooks90

البديل الرئيسي للنموذج التراكمي من التقييم الشخصي هو نموذج قائم على الشخصية، ووفقًا له فإن اتصاف الشخص بأنه «سيني» (س) يتألف من امتلاك الشخصية السمة «س». ويمكن القول إن اتصاف الشخص بالأمانة يتألف من امتلاك شخصيته سمة الأمانة. وبما أن هذه سمة شخصية جيدة أخلاقيًا، يسميها الفلاسفة فضيلة الأمانة. وهناك نزاع كثير بين الفلاسفة بشأن مقدار الرفع الواجب لمستوى امتلاك فضائل كالأمانة والكرم والشجاعة. ولأغراضنا الحالية هنا، يكفي القول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأن الشخص الأمين ليس من يفعل الأفعال الأمينة أحيانًا فحسب، وإنما الميال إلى الأمانة حين يُدعى إليها، والميال إلى الأمانة للأسباب الصحيحة. الشخص الأمين أمين على نحو يميزه. فالأمين يُثمِّن الصدق، على نحو مناسب، ويمكن الاعتماد عليه للتصرف وفق ذلك. وعلى النقيض، فإن الشخص عديم الأمانة يميل إلى الإحجام عن الأمانة في مناسبات كثيرة يكون من المهم فيها أن يكون المرء أمينًا. امتلك ريتشارد نيكسون سمة شخصية سيئة - رذيلة انعدام الأمانة - وقد امتلك هذه الرذيلة حتى مع أنه قال الحقيقة في مواقف كثيرة. هذا النموذج القائم على الشخصية في التقييم الشخصي يسمح لنا كذلك بأن يكون هناك معنى لدينا للشخص الشجاع الذي لم يكد يفعل أي أفعال شجاعة. امتلاك السمة الشخصية المتمثلة في الشجاعة يعني ضمنًا أن يميل أحدكم إلى فعل أفعال شجاعة حين يوضع في الظروف ذات الصلة. قد يتحلى شخص بهذا الميل الفاضل، إلا أنه نادرًا ما يُظهر هذا الميل ليتجلى في فعل شجاع، ببساطة لأنه نادرًا ما يجد نفسه في الظروف التي يدعى فيها إلى الفعل من النوع ذي الصلة.

وفي متناولنا هذا الإلمام الأساسي بنظرية الفضيلة، يحين وقت العودة إلى التفكير حول طبيعة الأشرار. تتوفر لنا مقاربات مختلفة عديدة إن أردنا أن نضع في الحسبان أنه ليس كل فاعل شر شريرًا. وأبسط الطرق لتصور شخص شرير يمر برواية تراكمية تحدد الخط الفاصل لاتصاف الشخص بالشر ليعلو على مجرد تنفيذه لفعل شرير واحد.

الرواية التراكمية لاتصاف الشخص بالشر: تكونُ شخصًا شريرًا إذا، وفقط إذا، كنت قد فعلت أكثر من عدد محدد من الأفعال الشريرة (أكبر من واحد).

بما أن بعض فاعلي الشر ارتكبوا فعلًا شريرًا واحدًا، فإن هذه الرواية تسمح بألا يكون كل فاعل شر شخصًا شريرًا. كما أنها تنسجم مع الفكرة القائلة بأن تسمية شخص بالشرير هي أشد أخلاقيًا من تسمية شخص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاعل شر، لأن ارتكاب مزيد من الأفعال الشريرة يجعل منك شخصًا أسوأ أخلاقيًا من شخص لم يرتكب إلا فعلًا واحدًا. يستحق الأشرار أشد الإدانة منا، ليس فقط لأنهم انخرطوا في اقتراف الخطأ من النوع الأشد حدية، ولكن أيضًا لأنهم مذنبون معاودون. لقد ساند عدة فلاسفة هذا النوع من الروايات، قائلين إن الأشرار هم من فعلوا الأشياء الشريرة بشكل متكرر، أو من يرتكبون الشر باستمرار. قد يبدو هذا معقولًا. فحين يُطلب منكم إدراج قائمة بالأشخاص الذين تعتقدون أنهم أشرار، قد تشيرون إلى هتلر أو ستالين أو بول بوت، وهؤلاء رجال ارتكبوا باستمرار فعلات رهيبة.

غير أن بعض المشكلات تنشأ إذا تصورنا الشخص الشرير على هذا النحو. فإذا طبقنا نموذجًا تراكميًا لاتصاف الشخص بالشر، فسيتعين علينا إذن القول بأن أي شخص فعل ما يكفي من الشر لكي يعبر الخط الفاصل سيبقى للأبد شخصًا شريرًا، حتى إذا خاض لاحقًا إصلاحًا أخلاقيًا وحاول قصارى جهده التكفير عما فعله. وقد يجوز جدًا لبعض القراء الاعتقاد بأن هذا يصدق على هتلرات وستالينات هذا العالم. ولكن عودوا بتفكيركم إلى تاكاشي ناجاسي، والذي شارك بشكل متكرر وعلى نحو يستوجب اللوم في أفعال تعذيب شريرة، ولكن بدا بعدها بسنوات كثيرة أنه مر بعملية إصلاح أخلاقي عميقة الجذور. تداهمني فكرة أن ناجاسي المنصلح لا ينتمي إلى فئة الأشخاص من النوع الأسوأ أخلاقيًا، حتى لو أنه بقي مسؤولًا أخلاقيًا عن جرائمه المريعة. إذا وافقتم على أن ناجاسي المنصلح فاعل شر لكنه ليس شخصًا شريرًا، فعليكم أن ترفضوا الرواية التراكمية لاتصاف الشخص بالشر.

ثمة بعض أسباب إضافية للاعتقاد بأن الرواية التراكمية تزيد الأمور سوءًا. فمن الشائع إلى حد لا يستهان به، وإن يكن هذا شيئًا مفجعًا للخلاف، تعليل ارتكاب شخص لفعل خاطئ خطأ رهيبًا بزعم أنه شخص شرير. فما إن هرب تيد بندي من السجن، مثلًا، سرعان ما عاد إلى قتل الضحايا الأبرياء، وقد نحاول تفسير هذا بالقول: «لقد فعلها لأنه شرير».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن محاولة التفسير هذه لا تعطي حقًا معنى للأمر لو أن كون الشخص شريرًا هو ببساطة مسألة ارتكابه أكثر من عدد محدد من الأفعال الشريرة. وعندئذ فإن جملة «فعلها لأنه شرير» سيتبين أنها تعني شيئًا من قبيل «لقد فعل هذا الشيء المريع لأنه فعل من قبل كثيرًا من الأشياء المريعة»، وهي جملة تفشل بوضوح كتفسير. لو أردنا السماح بأن يكون لجملة «فعلها لأنه شرير» معنى كتفسير، يكون لدينا سبب وجيه لرفض الرواية التراكمية.

وإليكم مشكلة أخرى تواجه الرؤية القائلة بأن الشخص الشرير هو، بحكم التعريف، شخص ارتكب عددًا كافيًا من الأفعال الشريرة. وفقًا لهذه الرؤية التراكمية، فإن شخصًا يرتكب فعلًا شريرًا واحدًا فقط لا يمكن أن يعد شخصًا شريرًا. ولكن ماذا لو تخيلنا شخصًا يبطن كرهًا شديدًا وطويل العهد لأقلية مضطهدة، يخطط وينفذ بحذر تفجيرًا انتحاريًا واحدًا سيئ القصد يقتل مئات الضحايا الأبرياء من تلك الجماعة. هذا التفجيري الانتحاري، وقد ارتكب فعلًا شريرًا واحدًا فقط، لن يعبر الخط الفاصل للرواية التراكمية ليرقى إلى شخص شرير. لو اعتقدتم أن تفجيريًا انتحاريًا كهذا يمكن احتسابه شخصًا شريرًا، فسيتوفر لديكم سبب آخر لرفض النموذج التراكمي.

يمكننا تجنب هذه الصعوبات عن طريق تحويل اتجاهنا إلى الرؤية القائلة بأن الشخص الشرير هو شخص لديه شخصية شريرة. ويمكن القول إن المكون المركزي في الشخصية الشريرة سيكون هو الميل إلى ارتكاب أفعال شريرة. لذا، فوفقًا لهذه الرؤية، يعد الشخص شريرًا لأنه شخص من النوع الميال إلى فعل الشر. لكننا نصطدم على الفور بمشكلة هنا. فكل فاعل شر لا بد أنه قد مال إلى فعل الشر، على الأقل في بعض المناسبات، لأنه ارتكب بعض الشر فعليًا، وأنت لا يمكنك أن تفعل شيئًا من دون أن تكون بدرجة ما ميالًا إلى فعله. لذا فلو حاولنا تعريف اتصاف الشخص بالشر استنادًا إلى امتلاك ميل إلى فعل الشر، يبدو كما لو أننا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سننتهي إلى رواية تقول ضمنًا لسوء الحظ إن كل فاعل شر هو شخص شرير. وحل هذه المشكلة بسيط: نحن بحاجة إلى قول إن الشخص الشرير هو شخص لديه ميل قوي بما يكفي لارتكاب أفعال شريرة. وعلى هذا النحو نفكر في ميول عادية أخرى كثيرة كذلك. وعلى سبيل المقارنة، انظروا في الميل إلى الهشاشة. الهشاشة ميل تحوزه زهريات كثيرة. الزهريات الهشة معرضة للكسر عند لمسها بمجسم صلب. أغلب الزجاج الرفيع أو الزهريات الخزفية هش، لكن زهريات أخرى كثيرة، من بينها البلاستيكية، ليست كذلك. تخيلوا، على كل حال، أنني أعطيكم زهرية بلاستيكية وأخبركم بأنها ليست هشة، فتحاولون إثبات أنني مخطئ بأن ترموها بعنف على الأرضية وتدوسوا عليها، أو تدقوها بمطرقة، فتحطموها قِطعًا. إنكم بفعلكم هذا لم تظهروا في النهاية أن الزهرية هشة. فأن يكون الشيء هشًا يعني امتلاكه ميلًا قويًا بما يكفي للانكسار، أو تعرُّضه على نحو خاص للانكسار عند الاصطدام بمجسم صلب. وبعض الأشياء التي يمكن كسرها لا تعد هشة، لأنها ليست معرضة بما يكفي للانكسار في الظروف ذات الصلة.

واستفادة من هذه المعرفة، يمكننا أن نبني رواية قائمة على الميل عن معنى أن يكون الشخص شريرًا.

الرواية المَيلية المبدئية لاتصاف الشخص بالشر: تكونُ شخصًا شريرًا إذا، وفقط إذا، كنت ميالًا بقوة إلى ارتكاب أفعال شريرة.

تنسجم هذه الرواية مع الرؤية القائلة بأنه ليس كل فاعل شر شخصًا شريرًا، ما دمنا افترضنا أن كثيرًا من الأشخاص الذين ارتكبوا فعلًا شريرًا أو اثنين لم يكونوا ميالين بقوة إلى فعل الشر. بعض الناس لا يرتكبون أفعالًا خاطئة خطأً مريعًا إلا عندما يكونون في ظروف شديدة الاستثنائية، أو فقط عند استفزازهم ليصلوا إلى الغضب البالغ. وأفعالهم الشريرة قد تلوح لمعارفهم بوصفها غير متوافقة مع نمطهم السلوكي، أو ليست حقًا من شيمهم. (لا تنسوا، مع ذلك، أننا حين نقول إنهم فاعلو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شر فنحن ندعي أنهم يستحقون اللوم على ما فعلوا. وحقيقة أنهم غير ميالين بقوة إلى فعل الشر لا تعفيهم من العقاب إذا ارتكبوا حقًا أفعالًا شريرة). وعلى النقيض، فإن بعض الناس ميالون بقوة إلى ارتكاب أفعال شريرة، بمعنى أنهم سيفعلون الشر في نطاق أوسع من الظروف، أو سيفعلون الشر بشكل أكثر تكرزا حين يكونون في الظروف نفسها، أو سيتحينون الفرصة لفعل الشر. القتلة التسلسليون ينسجمون بالتأكيد مع هذا الوصف التعريفي. كما ينسجم معه كثير من المسؤولين العسكريين والساسة رفيعي المستوى الذين يصوغون الخطط ويصدرون الأوامر من أجل الإبادة. هؤلاء أناس لم تلقِ بهم الصدف إلى فعل الشر. ففعل الشرير من ديدنهم. وهم يبدون جديرين بإدانة أخلاقية أشد مما يستحقه من يميلون إلى ارتكاب الأفعال الشريرة ميلًا ضعيفًا ليس إلا.

هذه الطريقة القائمة على الميول في التفكير حول طبيعة الأشرار لها مزايا واضحة فوريًا على الرواية التراكمية التي بحثناها آنفًا. أولًا، تسمح الرواية القائمة على الميل بأن يكون حتى من ارتكب في الماضي كثيرًا من الأفعال الشريرة قد أصبح، بعد خوضه صلاحًا أخلاقيًا، شخصًا نزيهًا إلى حد معقول وليس شخصًا شريرًا. فنوعية شخصيتك في الحاضر لا تتوافق دائمًا مع ما فعلته منذ سنوات مضت، والرواية الميلية تحترم هذه الحقيقة. ثانيًا، تنسجم الرواية الميلية لاتصاف الشخص بالشر مع الفكرة القائلة «فعلها لأنه شرير»، كجملة تتمتع بالبنية السليمة اللازمة لأداء وظيفة تفسير. وما ستعنيه هو شيء من قبيل «لقد ارتكب هذا الفعل الفظيع لأنه ميال بقوة إلى ارتكاب الأفعال الفظيعة». ومما يُقلق الفيلسوفة إيف جارار، وهي مدافعة شرسة عن مفهوم الشر، أن هذا تفسير زائف دائري، شيء أشبه بالادعاء الذي كان هدفًا شهيرًا للسخرية والقائل بأن الأفيون يسلم الناس إلى النوم لأنه يملك «خصائص منومة». أما فيليب كول، المتشكك على خلاف جارار حيال وجود الشر، فيعتقد أن لا شيء على الإطلاق يمكن تفسيره بهذا النوع من الاحتكام إلى

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

اتصاف الشخص بالشر.

وبينما سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن «فعلها لأنه شرير» ستعد أبدًا تعليلًا كاملًا لارتكاب شخص فعلًا شريرًا، فإنني أدفع بأنها يمكن أن تؤدي وظيفة تفسير جزئي. وهنا فمن المفيد، مرة أخرى، الرجوع إلى نظرية الفضيلة. فكروا في تفسيرات الكذب. افترضوا أن أحدهم قال: «كذبت لأنها شخص غير أمين». هذا بدوره قد يبدو تفسيرًا زائفًا دائريًا. فحقيقة أن أحدهم كذب يفسرها التفسير الأمثل أحيانًا أن يشار ليس إلى شخصية الكاذب المميزة، وإنما إلى ملامح البيئة الاجتماعية التي قيلت فيها الكذبة. وإذا تحدثنا بشكل تقريبي، قد نقول إن كل الناس تقريبًا كان من شأنهم أن يكذبوا لو كانوا في ذلك الوضع الاجتماعي نفسه. ولكن وفي مناسبات أخرى فإن حقيقة أن أحدهم كذب كذبة تفسرها جزئيًا حقيقة أن الشخص موضع البحث معتاد على الكذب، أنه لا يثمّن الأمانة، أنه مختلف على نحو بارز الوضوح عن أغلب الآخرين من هذه الناحية. وحقيقة أن هذا الشخص كذب في موقف كان أغلب الناس فيه سيصْدقون تفسرها حقيقة أنه مصاب برذيلة انعدام الأمانة. وبالطبع فإن هذا ليس تعليلًا كاملًا لكذبه. وإذا اكتفينا بسبب واحد لذلك، فهو أن تفسيرًا كاملًا كان سيشمل تعليلًا لتحوله، في الأصل، إلى شخص غير أمين على نحو يميزه. ولكن، وكما يمكن لضحايا المحتالين أن يشهدوا، فهناك بالفعل بعض الأشخاص غير الأمناء على نحو يميزهم يكذبون بوتيرة أشد وكذبًا أقبح من كذب الأشخاص العاديين، ولا يضايقهم كونهم مخادعين.

وعلى نحو مماثل، فإذا كان الشرير شخصًا ميالًا بقوة إلى ارتكاب أفعال شريرة، فسيكون صحيحًا ومفيدًا في بعض الحالات (ولكن ليس فيها كلها!) أن نقول: «فعلها لأنه شرير». بالطبع، لن يكون هذا تعليلًا كاملًا للفعل الشرير، لكن ما من تعليلات تكتمل إذا اتخذت من السمات الشخصية قوامًا لها. فلو كان أحدهم ميالًا إلى فعل الشر، يمكننا، وواجب

علينا، أن نسأل كيف وصل إلى امتلاك هذا الميل. لكن هذا لا يعني ضمنًا أن ميله لا يمكن أن يكون جزءًا مهمًا من تعليل فعله. فكروا في قاتل تسلسلي مثل ديفيد بيركويتز، الشهير بابن سام، والذي أثار الفوضى والخراب في نيويورك في منتصف عقد السبعينيات من القرن الماضي. وانظروا حالة جيفري داهمر، الذي خدَّر ضحاياه وقتلهم ثم مثَّل بجثثهم، حافظًا بعض الأشلاء ومضيفًا إياها واحدًا واحدًا إلى مجموعة مقتنياته البشعة. هؤلاء ليسوا أشخاصًا وجدوا أنفسهم لسوء الحظ في الوضع الخطأ، أو دُفعوا دفعًا إلى اقتراف الخطأ الحدي، أو تصرفوا ضد طبيعة شخصيتهم. لا على الإطلاق. كان بيركويتز وداهمر يتحينان الفرص ويخلقانها مرارًا وتكرارًا لقتل أبرياء، واستمدا متعة هائلة من فعل ذلك. كان ميلهما إلى فعل الشر، بأي مقياس معقول، ميلًا قويًا. ليس كل فاعل شر شخصًا شريرًا، ولكن ألديكم استعداد لقول إن هذين ليسا شريرين؟

النموذج الميلي لاتصاف الشخص بالشر فيه بعض مواطن القوة التي يفتقر إليها النموذج التراكمي، فليس مستغربًا أن فلاسفة عديدين قد دافعوا عن رواية ميلية. وله، مع ذلك، بعض المضامين المفاجئة. مثلًا، تعني الرواية الميلية ضمنًا أن أحدهم قد يعد شخصًا شريرًا بسبب شخصيته، حتى لو أنه لم يرتكب بعد أي أفعال شريرة، ببساطة لأنه لم يجد نفسه بعد في البيئة الصحيحة. ويميل المدافعون عن الرواية الميلية إلى رؤية هذه النتيجة بوصفها إيجابية أكثر منها سلبية. فنحن نتخيل الشخص الميال بقوة إلى ارتكاب أسوأ نوع من الأفعال الخاطئة أخلاقيًا، لكنه لم يحظَ بعد بفرصة ارتكابها، كأنه قاتل بالجملة باعتبار ما سيكون، كاره للبشر، يلبث كامنًا في الانتظار، منتظرًا بصبر حتى يحصل على فرصته. هذا النوع من الأشخاص لديه ميل لفعل الشر أقوى مما لدى كثير ممن يرتكبون الشر فعليًا حين يوضعون في ظروف صعبة. هو منحط أخلاقيًا، ويستحق منا أشد الإدانة، لذا فربما ليس من الخطأ القول بأنه شخص شرير حتى لو أنه لم يرتكب بعد فعلًا شريرًا.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يوافق بعض الفلاسفة على أن مكونًا ضروريًا في اتصاف الشخص بالشر هو ميل قوي لفعل الأفاعيل الشريرة، لكنهم يعتقدون أن كون الشخص شريرًا ينطوي على ما هو أكثر من مجرد امتلاك هذا النوع من الميل القوي. وقد زعم دانييل هايبرون وبيتر برايان باري، مثلًا، أن الشخص الشرير يجب تعريفه بوصفه الصورة المعكوسة في المرآة من الشخص فاضل الأخلاق. لا تشير عبارة «الشخص الفاضل»، في هذا السياق، إلى شخص طبيعي يتحلى بالنزاهة ويستحق الإعجاب في المجمل، لكن لديه نصيبه الوافر من صغائر العيوب الأخلاقية. إنما الشخص الفاضل بالأحرى هو شخص ممتاز أخلاقيًا من كل ناحية، مثال أخلاقي متكامل تمام التكامل. إذا كان الشخص الشرير هو الصورة المعكوسة لمثال أخلاقي من هذا النوع، لكان الشخص الشرير شخصًا سيئًا من كل جانب، شخصًا ليس فقط ميالًا بقوة إلى ارتكاب أفعال بالغة الخطأ، وإنما يخلو من أي سمات تعويضية من أي نوع كان.

الرواية المرآوية لاتصاف الشخص بالشر: تكون شخصًا شريرًا إذا، وفقط إذا، كنت الصورة المعكوسة في المرآة من الشخص الفاضل أخلاقيًا.

هذه فكرة جذابة عند إلقاء نظرة أولى، لكن الاستعارة تنهار بمجرد أن نحاول ملء فراغ التفاصيل بالمحتوى. فالمرايا تعكس صورًا بصرية، والشخص ليس صورة بصرية، لذا كثيرًا ما تنعدم الإجابة على سؤال من الذي يعد صورة المرآة من شخص فاضل. لنرى كيف يتجلى هذا النوع من الفشل. يتحلى الشخص الفاضل بسمات شخصية حسنة التكامل موجهة إلى غايات حسنة أخلاقيًا، ويقوده هذا على نحو يعتمد عليه إلى فعل الصواب. إن قيمه الأخلاقية سليمة، ومتماسكة، ومعتنقة بقوة. فأي نوع من الناس سيكون صورته في المرآة؟ أهو شخص مؤدلج جامد العقيدة ضال ضلالًا مريعًا له سمات شخصية حسنة التكامل موجهة إلى غايات سيئة أخلاقيًا، شخص تدفعه مجموعة قيم معتنقة بقوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن ضالة؟ أم أن صورة المرآة من الشخص الفاضل هي لمضطرب عقليًا مندفع ومتمحور حول ذاته تمامًا، ذي شخصية مفككة، مشدود في كل الاتجاهات المتصارعة من كل نوع، ليست له مجموعة مستقرة من القيم على الإطلاق؟ إن استعارة المرآة لا ترشدنا هنا. وانظروا مثالًا آخر: الشخص الفاضل شخص يعرف ما عليه فعله أخلاقيًا، ويتصرف دومًا بالتناغم مع أحكامه الأخلاقية السليمة. فهل صورته في المرآة هي لشخص يعرف دومًا ما عليه فعله أخلاقيًا، لكنه يستسلم دومًا للغواية ويتصرف ضد أحكامه الأخلاقية السليمة؟ أم شخص يصدر أحكامًا خاطئة على نحو منهجي بشأن ما عليه فعله أخلاقيًا، فيتصرف دومًا على نحو خاطئ بالتناغم مع أحكامه الخاطئة؟ مرة أخرى، لا تمدنا استعارة المرآة بجواب.

وفي حين أن هذه الثغرات مزعجة، فهناك مشكلة إضافية أبعد وأعمق في الرواية المرآوية. فهي تعني ضمنًا أن الشخص الشرير هو شخص يخلو قطعًا من أي سجايا أخلاقية. وهذا تقييد يبلغ حدًا لا يُصدق من التضييق وانعدام الواقعية. فكروا في شخص مثل هتلر، تحيّن الفرص وخلقها لإنزال مقادير من الأذى لا يمكن استيعابها بضحايا كانوا في الحقيقة أبرياء براءة تامة، وفعل ذلك لفترة ممتدة، وكان التزامه الأيديولوجي من العمق بحيث ما كانت لدينا فرصة لإصلاحه. فهل كان هتلر شخصًا شريرًا؟ وفقًا للرواية المرآوية، فلكي نجيب عن هذا السؤال سنحتاج أولًا إلى تمشيط سجله بحثًا عن أي أفعال جديرة بالإعجاب أخلاقيًا، والبحث في شخصيته عن أي سجايا. فإذا اكتشفنا، مثلًا، أن هتلر كان يكن للكلاب مودة دافئة، أو أنه كان يحترم ويثمن على النحو اللائق الأماكن البرية، أو أنه كان طيبًا على الدوام مع العاملين بمكتبه، لتعين علينا استخلاص أنه لم يكن شخصًا شريرًا في النهاية. إن التعريف المرآوي لاتصاف الشخص بالشر يكاد يحتم أن ما من شخص حقيقي سيعد شريرًا. والأهم من ذلك أنه يوحي كذبًا وبهتانًا بأن نجاحات هتلر

الأخلاقية المتواضعة يعتد بها اعتدادًا جوهريًا فيما يتعلق بمسألة إذا ما كانت تصح إدانته كشخص شرير. وهي ليست كذلك. فإذا كنتم تعتقدون أن هتلر محب الكلاب هو شخص شرير، فعليكم إذن أن ترفضوا الرواية المرآوية.

وللرواية الميلية عن اتصاف الشخص بالشر امتداد آخر طرحه الفيلسوف فيليب كول. ومن الجدير بالذكر أن كول نفسه يعتقد أن الشر غير موجود. فيتمسك بقول إنه لا وجود للأفعال الشريرة ولا وجود للأشرار. إلا أنه من اللازم على كول أن يخبرنا، كجزء من حجته المؤدية إلى هذا الاستخلاص، أي سمات كان سيتعين أن يمتلكها شخص لكي يعد شريرًا. (والنوع نفسه من العبء التعريفي يقع على كاهل الملحدين، فللمحاججة لصالح الرؤية القائلة بأن الرب غير موجود، يكون لزامًا على الملحدين إخبارنا بمعنى كلمة «الرب» عندهم). يقترح كول أن الشخص الشرير لن يكون مجرد شخص ميال بقوة إلى ارتكاب أسوأ أنواع الأفعال الخاطئة أخلاقيًا، وإنما شخص ولد شريرًا، وهذه فكرة مألوفة، ولعلها تُستدعى أكثر ما تُستدعى فيما يتعلق بالمضطربين عقليًا، الموصوفين أحيانًا بأنهم أشرار بالفطرة. ولنكون واضحين، فما نبحثه عند هذه النقطة ليس سؤال إذا ما كان أحد في واقع الأمر يولد شريرًا. وإنما نحن نقيّم الادعاء التعريفي القائل بأن جانبًا من معنى أن يكون الشخص شريرًا يشمل مولد الشرير شريرًا. تذهب رؤية كول إلى أنه لو كان أي أحد شخصًا شريرًا، إذن لكان، بحكم التعريف، قد ولد شريرًا. وللحول دون أن ينقلب هذا إلى تعريف دائري، نحتاج إلى ضم وصف مستقل لماهية ما يولد به الشخص الشرير. والمرشح الأمثل هو بالضبط الميل من النوع الذي كنا قد تحدثنا عنه آنفًا في هذا الفصل.

رواية اتصاف الشخص بالشر لأنه ولد شريرًا: تكون شخصًا شريرًا إذا، وفقط إذا، كنت ولدت بحيث ستكبر حتمًا ميالًا بقوة إلى ارتكاب الأفعال الشريرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهذه رواية معقولة لما يعنيه أن يكون المرء شخصًا شريرًا؟ لنبدأ من ملاحظة أن هذا التصور لاتصاف الشخص بالشر دائمًا ما يستخدم لدعم ما يسميه الفلاسفة «نظرية مغلوطة» عن الأشرار. انظروا في المقارنة الآتية. بابا نويل، بحسب التعريف، رجل يعيش في القطب الشمالي ويطير حول العالم مقدمًا للأطفال الهدايا عشية الكريسماس. وبما أن رجلًا كهذا لا وجود له في العالم الحقيقي، فإن بابا نويل غير موجود. يتوهم عدد لا يحصى من الأطفال أن بابا نويل شخص حقيقي موجود، لكن هؤلاء الأطفال جميعهم يقعون في غلطة. وعلى نحو مماثل، فإن المدافعين عن رواية مولد الشرير شريرًا يؤمنون وفق نموذجهم السائد بأن الشخص الشرير، بحكم التعريف، هو شخص ولد شريرًا، ولكن بما أننا نعلم أن شخصية كل إنسان تؤثر فيها بقوة تنشئته، نعلم أن أحدًا لم يولد بشخصية شريرة ثابتة، ومن هنا ينبغي أن نَخلص إلى أن ما من شخص حقيقي شرير. وهذه الرؤية كثيرًا ما تُدمَج بحجج أخلاقية تقول ما معناه إن افتراض مولد بعض الناس أشرارًا سيمثل تحاملًا وظلمًا مريعين، فلا بد أن الحاصل هو أن أحدًا لا يولد شريرًا. كما يُقترح أحيانًا أنه لو كان أحدهم ولد شريرًا، لما كانت لديه فرصة في أن يصبح شخصًا صالحًا، ومن هنا فيجب ألا يُحمَّل مسؤولية أفعاله. لكن هذه الحجج الإضافية تعامَل نمطيًا بوصفها فائضة عن الحاجة، لأن معظم المدافعين عن هذا التعريف للفعل الشرير متأكدون من أن أحدًا لا يملك شخصية ثابتة منذ الميلاد.

من الشائع إلى حد لا يستهان به الاعتقاد بأن شخصًا نجده شريرًا لا بد أنه كان قد ولد شريرًا. هذا الاعتقاد كثيرًا ما يلوح في الخلفية حين يُقلق الناس احتمال أن ينطوي التفكير على أساس الشر على خطر أخلاقي. فإذا افترضنا أن كل من هو مذنب باقتراف خطأ جدي شخص شرير، وأن الشخص الشرير هو شخص شرير بالفطرة، شخص مجبول بمورثاته على أن يصبح جلادًا أو قاتلًا، فقد ينتهي بنا الحال إذن إلى اعتناق نوع من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القدرية. فما المغزى من محاولة تشكيل الشخصية الأخلاقية للأطفال الذين يعانون مشكلات سلوكية لو أن هؤلاء الأطفال ولدوا أشرارًا؟ ربما من الأفضل شطبهم. لكن نفض الأيدي من الأطفال المضطربين ليس قابلًا للدفاع عنه أخلاقيًا. وهكذا فإن النضال التقدمي في سبيل تحسين المجتمع قد يبدو في حالة تعارض مع استعمال مفهوم الشر.

هذه الهواجس مفهومة، لكني أرى وجوب مقاومة المضي في هذا الخط من التفكير. فحتى لو كان تعريف الشخص الشرير بأنه «المولود شريرًا» تعريفًا صحيحًا، ما كان ليترتب على ذلك أن يؤدي التفكير على أساس الشر إلى نوع غير مرغوب من القدرية. فكما قد رأينا، هناك اختلاف مهم بين الحكم على شخص بأنه ارتكب فعلًا شريرًا والحكم بأنه شخص شرير. وكل الفلاسفة الذين قدموا تعريفات للفعل الشرير يتفقون مع الادعاء القائل بأنه ليس كل فاعل شر شخصًا شريرًا. وهم يميلون إلى الاعتقاد بأن الأشرار إن وُجدوا فهم نادرون بالمقارنة. ينطوي إطلاقكم على فعل صفة الشر على إدانة أخلاقية منكم للفعل بأشد العبارات الممكنة، وعلى دعوة منكم لإخضاع المنفذ للمساءلة، لكنكم لا تقولون ضمنًا إن الشخص الذي ارتكب الفعل شرير، ناهيكم بأن تقولوا إنه ولد بشخصية فطرية وغير قابلة للتغيير. فكروا في الناجين من الهولوكوست، ومن بينهم بريمو ليفي، الذين ادعوا أن شرًا فُعِل بهم في معسكرات التجميع. فهل يفترضون أن كل حارس من حراس المعسكرات ولد على نحوٍ جعَل هذا النوع من السلوك محتمًا؟ هل يفترض هؤلاء الناجون أن الظروف الاجتماعية في ألمانيا في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي لم تسهم في المذبحة الكبرى التي تلته، وأن المنفذين كانوا أشرارًا بالفطرة وكانوا سيفعلون ذلك بغض النظر عن أي شيء؟ الإجابة عن السؤالين هي بالنفي القاطع. كثيرون ممن يستعملون كلمة «شر» يطبقونها في المقام الأول على الأفعال، وبوتيرة أقل بكثير على الأشخاص، وهم لا يفترضون أن كل فاعل شر تعذر عليه أن يصبح شيئًا مختلفًا. بل من المحتمل أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحكم بأن أفعالًا كثيرة شريرة لكن لا أحد شخص شرير.

ونحن، والحق يقال، نجهل إن كان هناك أناس يولدون بمورثات ينتج عنها دائمًا تطور هذا النوع من الشخصية. وتدفعنا أدلة مختلفة في أي من الاتجاهين. فمن الصعب جدًا تغيير المسار السلوكي لبعض الأطفال الذين، ومنذ سن مبكرة، يظهرون ما يسمى سمات فظة وغير عاطفية، وعلى الرغم من جهودنا المثلى فكثيرًا ما نفشل في ذلك. وتدعم هذه الحقيقة الرؤية القائلة بأن بعض الناس على الأقل ميالون مسبقًا وبقوة إلى أن يصبحوا مقترفي أخطاء حديين. غير أن بعض المورثات المقترنة إحصائيًا بالسلوك بالغ العنف، ومن بينها مورثات «الأوكسيداز أحادي الأمين أ»، لا تبدو كمسببات حتمية لذلك السلوك. ويبدو كما لو أن وجود هذه المورثات مجتمعًا بشروط بيئية محددة يسفر عن تطور سلوك حدي معادٍ اجتماعيًا.

على أي حال، فإن سؤال إذا ما كان كل شخص شرير هو، بحكم التعريف، مولود شريرًا، سؤال لا يدور حول هذه الأسئلة التجريبية بشأن مرونة أو ثبات تكوين شخصية الإنسان. وليس لدينا من الأصل أي داعٍ وجيه لقبول هذا التعريف لاتصاف الشخص بالشر. إذا كان ميلاد الشرير شريرًا جزءًا من مفهوم اتصاف الشخص بالشر، فلا معنى للقبول بكون فرد بعينه شخصًا شريرًا ثم مواصلة النقاش بشأن أي أحداث الحياة جعلته شريرًا. إلا أننا حين نبحث حالة شخص مثل هتلر، يقبل كثير منا أنه كان شخصًا شريرًا بينما نواصل على نحو متماسك الجدال حول أي من الأحداث التي مرت بحياته حولته إلى شرير. فهل أصبح هتلر شخصًا شريرًا لأنه عانى من التسمم بالغاز أثناء الحرب العالمية الأولى؟ أم أن ذلك حدث لأنه أصيب باضطراب ما بعد الصدمة الناجم عن خبراته في الخنادق؟ أم هل أصبح شخصًا شريرًا بسبب مرات الضرب المهين الذي تلقاه طفلًا من أبيه؟ لكل من هذه النظريات من يدافعون عنها. ما يهم هنا ليس أيٌ هذه التفسيرات صحيح، إن كان أي منها كذلك. ما يهم هو

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن هناك معنى للمجادلة حول أي من الشروط البيئية ساهم في تحول هتلر إلى شخص شرير. عندما يتجادل الناس حول أي أحداث الحياة حوّل هتلر إلى شرير، فهم لا يفترضون أن كل شخص شرير هو، بحكم التعريف، شرير بالفطرة. ويرجح هذا بقوة أن رواية مولد الشرير شريرًا تخلو من التعريف الصحيح للشخص الشرير.

وحين نأتي إلى مسألة طبيعة الشخص الشرير، فقد حاججت بأننا يصح أن نرفض كلًا من رواية الصورة المرآوية ورواية مولد الشرير شريرًا. ربما يجب أن نعود أدراجنا إلى الرواية الميلية المنظور فيها آنفًا. وبحسب هذه الرؤية، فأنت شخص شرير إذا، وفقط إذا، كنت ميالًا بقوة إلى ارتكاب أفعال شريرة، بغض النظر عن إذا ما كنت تتحلى ببعض السجايا الحسنة ممزوجة بعيوبك البالغة، وبغض النظر عن كيف وصلت إلى امتلاك هذا المَيل. ترجح هذه الرواية أنه ليس كل فاعل شر شخصًا شريرًا، وأن الناس على شاكلة هتلر وجون واين جاسي يعدون أشرارًا، على أساس أنهم امتلكوا ميولًا قوية على نحو خاص لارتكاب أفعال شريرة. وفي حين أن هذه الرواية جذابة بأشكال عديدة، أعتقد أنها بحاجة إلى تعضيدها بشرط إضافي. حين نعاين المواقف التي يرفع فيها الناس مستوى إدانتهم من «ما فعله كان شريرًا» إلى المستوى الأكثر حدية «هو شخص شرير»، نجد أنهم لا يخبروننا فحسب بأن الشخص موضع البحث خطر بشدة ويرجح أن يرتكب فعلات بشعة حين يُمنح الفرصة. إنهم يخبروننا كذلك بأننا يجب ألا نحاول تعقيل هذا الشخص أو إصلاحه. إنهم يخبروننا بأن هذا الشخص هو الآن خارج متناول أيدينا، ويصح أن يعامَل كمستبعد. الشخص الشرير يستحسن تقييد حركته وعقابه على نحو ثابت، بل ربما إهلاكه. حين دعا الرئيس جورج دبليو بوش إرهابيي الحادي عشر من سبتمبر بالأشرار، كان يقول ضمنًا إننا يجب ألا نتوقع إمكان أن نثني بالكلام أناسًا كهؤلاء عما يعتزمون فعله. يجب ألا تكون استجابتنا لشخص شرير بالتعاطف، ولا بالدبلوماسية،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ولا بمحاولات إعادة التأهيل، وإنما بالقوة. وعلى النقيض، انظروا في الادعاء القائل بأن ما فعلته ليندي إنجلاند في أبو غريب كان شريرًا، أما هي فليست شريرة. يمكن القول إن ما يفعله شخص يدعي هذا الادعاء هو إعطاء إشارة بوجود أمل أمامها، وبأنها ليست شخصًا من النوع الذي سيواصل إلى الأبد ارتكاب أفعال من ذلك النوع حين يُمنح الفرصة.

في ضوء هذا، فإن اقتراحي هو أن الشخص الشرير لا بد أن يملك ميلًا قويًا وثابتًا بشدة لارتكاب أفعال شريرة، ميلًا لا يملك أعضاء المجتمع الآخرون القوة اللازمة لتغييره، ميلًا نتوقع أن يمكث مهما حدث.

الرواية القائمة على الميل الثابت لاتصاف الشخص بالشر: تكونُ شخصًا شريرًا إذا، وفقط إذا، كنت ميالًا بقوة إلى ارتكاب أفعال شريرة، وكان هذا الميل ثابتًا ثباتًا متينًا إلى حد أنه يتوجب التعامل معك كمستبعد.

قد يرتاب القارئ المدقق في كوني أنقلب على عقبي هنا. فقد سبق أن رفضت الرؤية القائلة بأن الشخص الشرير يجب تعريفه بأنه شخص وُلد شريرًا، أو امتلك شخصية شريرة بالفطرة، إلا أنني هنا أدعي أن الشخص الشرير يمتلك شخصية أخلاقية ثابتة بشدة. وقد يبدو هذان الادعاءان كما لو أنهما متكافئان، ولكن بمزيد من التدقيق يتبين وجود اختلاف مهم بينهما. أنا أدعي أن الشخص الشرير هو شخص لديه ميل قوي لفعل الشر وهو ميل ثابت بشدة الآن وفي المستقبل، وليس أن الشخص الشرير كان لديه هذا الميل في كل نقطة مرت من حياته، ناهيك بأن الشخص الشرير كان محتمًا عليه وراثيًا أن يطور هذا المَيل. كثير من ميولنا الذهنية والسلوكية ليست فطرية، وإنما هي نتاج الخبرة والتعلُّم المرهونين بالظروف، وبعض تلك الميول المكتسبة بالتعلم، وبمجرد اكتسابها، تصبح متينة الثبات امتدادًا في المستقبل. فكروا في قدرتكم على فهم الجمل الأساسية المكتوبة بالإنجليزية، أو قدرتكم على ركوب دراجة. ليس أي من هذين المَيلين فطريًا. ولا يمثل أي منهما قدرة كنتم ستكتسبونها حتمًا، أيًا تكن البيئة التي نشأتم فيها. ولكن بمجرد أن تكونوا

Page

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قد اكتسبتموهما، سيكون من الصعب جدًا التخلص منهما. اعتقد أرسطو أن الفضائل من قبيل الشجاعة والعدالة والكرم ليست في صميم الطبيعة البشرية، وإنما تُكتسب عن طريق التعلم. وآمن أرسطو، على الرغم من ذلك، بأنك ما إن تكون قد تلقيت تعليمًا ملائمًا، تصبح الفضيلة طبيعة ثانية لك. من هنا فصاعدًا يصطبغ بها النسيج الذي يتألف منه كيانك. ومن الواضح أن هناك اختلافًا بين القول بوجود سمة كانت فطرية وحتمية بالنظر إلى جيناتك، والقول بأن سمة أصبحت الآن ثابتة بشدة وغير قابلة للمحو. وادعائي هو أن النوع الثاني من الميول لازم لكي يعد الشخص شريرًا، أما الأول فليس كذلك.

إذا صح هذا التعريف لاتصاف الشخص بالشر، يمكننا أن نفقه معنى لخوف المتشككين من أن يؤدي استعمال مفهوم الشر إلى غلق باب التواصل مع المنفذين، وإلى تفضيل الفتك على الدبلوماسية، وإلى معاملة كل مقترف حدي كقضية خاسرة. إذا كان الشخص شريرًا، فليس لدينا أمل واقعي في إصلاحه. أفضل ما يمكننا فعله هو تقييد حركته وتقليص قدرته على إحداث الدمار والفوضى. هذا حكم عالي المخاطرة إلى حد لا يصدق، حكم من النوع الذي كثيرًا ما يجر تبعات لا يمكن تداركها. ولهذا السبب علينا أن نتوخى أشد الحرص كيلا نندفع إلى إدانة المقترفين بوصفهم أشرارًا. وبدلًا من ذلك ينبغي أن نسأل أنفسنا ما إذا كانت لدينا أدلة وجيهة على كون هؤلاء المقترفين غير قابلين للإصلاح وأن أمرهم خرج من أيدينا. في معظم الحالات، وبينما قد ندين الأفعال بالشر، ينبغي أن نعترف بأننا نجهل بحق إن كان المنفذ شريرًا، لأننا نجهل إن كان خارج نطاق الإصلاح. وفي هذه الحدود، أتفق مع المتشككين. فكثير منا يندفعون رأسًا إلى إدانة الآخرين بوصفهم أشرارًا، بينما نحن في الحقيقة يجب علينا ألا نشطبهم. ولكن، وكما قد حاججت بالفعل، فإن الحكم على شخص بأنه ارتكب فعلًا شريرًا، ليست له، بذاته، هذه المضامين. فإدانة فعل والدعوة إلى مساءلة المنفذ لا تعني ضمنًا شطب

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

ذلك المنفذ. كثير من فاعلي الشر لا يمتلكون شخصيات متينة الثبات تجعلهم ميالين إلى تحيُّن فرصة اقتراف الخطأ من النوع الأسوأ. ويصل كثير من فاعلي الشر إلى الشعور بالندم، ويلي ذلك أن يمر كثير منهم بإصلاح أخلاقي. لقد أشار المتشككون إلى سبب وجيه لتوخي الحذر الشديد في الحكم على شخص بأنه شرير، لكنهم لم يمنحونا سببًا للاعتقاد بوجوب التوقف عن استعمال مفهوم الشر كلية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل أنت شرير؟

Telegram:@mbooks90

هل أي منا شرير؟

لقد أخذنا نحاول أن نتبين ما يرقى إلى مصاف الفعل الشرير، وأي تعريفات الشخص الشرير هو التعريف الأمثل. وأريد أن أفتتح هذا الفصل الختامي الوجيز بتسليط الضوء عليك أنت. أأنت فاعل شر محتمل؟ والأدهى والأمرُّ أن تكون شخصًا شريرًا، فهل هذا ممكن؟ من المغوي جدًا أن نجيب عن هذين السؤالين بالنفي التام. حين نكون بصدد تقييم أنفسنا، يدعي أغلبنا امتلاك قيم أخلاقية قوية إلى حد كبير، وإن عابتها بعض نقاط الضعف. الأخطاء الحدية لا يرتكبها إلا من يفتقرون إلى القيم الأخلاقية، عديمو الضمير، لا النزهاء من أمثالنا. صحيح أن كثيرين منا يقرون بأننا لو وضعنا تحت إكراه بالغ، قد تتهاوى صلابتنا وقد نُوقِع أذى بالغًا بالآخرين. فلو تلقينا تهديدات أو خضعنا لابتزاز، أو لو كنا نتضور جوعًا وبحثنا عن الطعام بحث اليائسين، أو لو اتُّهمنا اتهامًا باطلًا وحُبسنا ظلمًا، أو لو كانت حياة من نحبهم في خطر، قد نستعمل العنف لكي نحصل على ما نحتاجه. لكن هذه الأنواع من الظروف اليائسة تؤخذ وفق النموذج السائد كعوامل تخفف المسؤولية عن اقتراف الخطأ. فأنت لست ملومًا بالكامل فيما تفعله وأنت في هذه الأنواع من المواقف، وقد قررنا بالفعل أن الأفعال الشريرة، بحكم التعريف، هي أفعال تتحمل عنها الذات الفاعلة كامل المسؤولية. لذا فحقيقة أنك ميال إلى إنزال الأذى بالآخرين، وأنت في ظروف تبرِّئك، لا تعني ضمنًا أنك فاعل شر في حالة انتظار، أو أنك شخص شرير. غير أن هناك تحديًا أشد إقلاقًا يكمن في هذا المحيط. في ستينيات القرن الماضي، أجرى عالم النفس ستانلي ملجرام مجموعة مزلزلة من التجارب تختبر نزوعنا إلى إطاعة رموز السلطة. وكان ما

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

توصل إليه مفاجئًا ومفزعًا. يرجح اكتشاف ملجرام أن معظمنا ميالون إلى إنزال أذى مريع بالآخرين حتى ونحن لسنا في ظروف يائسة.

لو كنت قد سجلت للاشتراك في تجربة الطاعة التي أجراها ملجرام، فإليك ما كان سيحدث. لدى وصولك إلى الغرفة المخصصة في حرم جامعي، سيقول لك (كذبًا) عالم يرتدي معطفًا مختبريًا إنك تشارك في تجربة تختبر إذا ما كان للعقاب أثر إيجابي على التعلم. لقد أُسند إليك على نحو عشوائي دور «معلم»، هكذا كان العالم سيقول، بينما كان شخص آخر من المسجلين في سبيله إلى أن يلعب دور «متعلم». سترى المتعلم مثبتًا إلى كرسي، وتراقب الأقطاب الكهربائية وهي تثبت بجسده. ثم ستقاد إلى غرفة أخرى وتُجلَس قبالة آلة يبرز فيها صف طويل من المحولات الكهربائية، تبدأ من ٤٥ فولتًا وتنتقل بدرجات تراكمية وصولًا إلى ٤٥٠ فولتًا. كنت ستتعرض أنت شخصيًا إلى صدمة منخفضة الجهد كعينة، لترى مدى إيلامها، ثم كان القائم على التجربة سيشرح الإجراء الخاص بالتعلم. كانت وظيفتك بوصفك معلمًا ستتمثل في تلاوة أزواج من كلمات على المتعلم ثم اختبار قدرته على تذكرها. في كل مرة يرتكب فيها المتعلم الموجود في الغرفة الأخرى غلطة، كنت ستنزل محوّلًا كهربائيًا وتعرض المتعلم لصدمة عقابًا له. وبعد كل إجابة خاطئة كان سيطلب منك رفع المستوى برفع الجهد الكهربائي درجة. وإذا عبّرت عن شكوك بشأن ما كنت تفعله في سياق التجربة، أو إذا قلت إنك ترغب في الاطمئنان على المتعلم، كان العالم سيقول لك إن ما من أذى دائم يلحق بالمتعلم، وإن التجربة تتطلب منك الاستمرار. وإذا عبّرت بشكل متكرر عن اتخاذك قرارًا بالتوقف، كان العالم سيسمح لك بالتوقف في أي مرحلة.

يبدو هذا أكثر من مجرد تصرف ينطوي على بعض القذارة. فحتى الصدمات الكهربائية الخفيفة مؤلمة. وإذ ترفع المستوى، فهي لا تصبح مؤلمة ألمًا كاسحًا فحسب، وإنما مهدد للحياة. وأنت لست شخصًا من

النوع الذي سيعرِّض شخصًا بريئًا لا يعرفه لصدمات كهربائية ساحقة ويحتمل أنها مميتة، أليس كذلك؟ حين نتفكر في هذا السيناريو مقدمًا، يقول أغلبنا إننا ما كنا لنتجاوب مع تعليمات القائم على التجربة، وعلى الأخص ليس فيما يتجاوز النقطة التي يصرخ فيها المتعلم الموجود في الغرفة المجاورة ألمًا ويتوسل لتحريره. نحن بالتأكيد رحماء. نحن نبالي بسلامة المتعلم، ونخلو من أي رغبة في أن يعاني. نحن بالتأكيد شجعان بما يكفي للوقوف في وجه العالِم. فالعالِم، في نهاية المطاف، لا يهددنا على أي نحو، أو يفرض علينا أي أثمان. العالِم يعطينا توجيهات بالاستمرار ليس إلا.

والاكتشاف المروع الذي توصل إليه ملجرام هو أن معظم الناس يواصلون إعطاء الصدمات الكهربائية فيما يتجاوز، وبمسافة، النقطة التي عندها يصرخ المتعلم ويتوسل لإطلاق سراحه. (في تجربة ملجرام، لا يُكهرَب الشخص بالفعل. فالمتعلم ممثل، والصرخات التي يسمعها المعلم من الغرفة المجاورة مصطنعة، لكنها مقنعة بما يكفي لتخدع الأغلبية العظمى من المشاركين). في نسخة ملجرام، أعطى ٦٥ بالمائة من المشاركين صدمات تتجاوز نقطة سكوت المتعلم المكروب، واستمروا ليصلوا رأسًا إلى أعلى نقطة على المقياس، والبالغة ٤٥٠ فولتًا. وهم لم يتبعوا تعليمات العالم بسادية متشفية. ولم يطيعوا ببرود خالٍ من العاطفة. بل إن معظمهم أطاعوا ظاهرة عليهم علامات الكرب، في حين كانوا يسألون عن سلامة المتعلم الذي بإمكانهم سماعه يصرخ في الغرفة المجاورة، وفي حين كانوا يبدون شكوكهم بشأن إذا ما كانت العملية برمتها مبررة. لقد أطاعوا، فيما يبدو، في حين كانوا يعلمون أنهم يجب ألا يطيعوا. أغلب الناس في سياق هذه التجربة مطيعون إلى حد أنهم مستعدون لخيانة قيمهم وكهربة المتعلم إلى النقطة التي يوقنون عندها أنهم قتلوه، أو على الأقل عذبوه إلى ما بعد نقطة فقدان الوعي.

لعلك تقرأ هذا وتفكر بينك وبين نفسك: «نعم، ولكني ما كنت لأفعل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك. لدي ضمير قوي. كنت سأرفض مبكرًا». وحقيقة الأمر المخيفة هي أن أغلب الناس يقولون لأنفسهم الشيء نفسه بالضبط، لكنهم يستمرون ويكهربون المتعلم وفقًا للتعليمات. لقد أعيدت هذه التجربة مرات كثيرة مع مجموعات من الناس واسعة التنوع، ولا تتأرجح نسبة الطاعة إلا قليلًا. والأرجح أنك أنت بدورك تميل إلى كهربة بريء تجهله حين يوعز لك رمز من رموز السلطة بأن تعاقبه لوقوعه في أخطاء أثناء مهمة تذكُّر تافهة. ولكان هذا تصرفًا بالغ اللاأخلاقية، فأي عذر ستقدمه دفاعًا عن نفسك؟ أن الرجل ذا المعطف الأبيض أخبرك بأن تفعل ذلك؟ لقد كانت جملة «كنت أتبع الأوامر فحسب» عرضة للسخرية في محاكمات نورمبرج لمجرمي الحرب النازيين، لذا فليس من الواضح لماذا يجب علينا القبول بها هنا. حين يكون الأمر الصادر لاأخلاقيًا بوضوح، يجب عليك ألا تأتمر به. يمكن تقديم مرافعة قوية لصالح الاستخلاص القائل إن كهربة شخص بريء حتى الموت في هذه الظروف أمر خاطئ بما يكفي ليعد شريرًا. ومحصلة هذا أننا، أنت وأنا على السواء، ميالان في الأغلب إلى فعل الشر عندما نوضع في سيناريو ملجرام.

ولا شك أن هذه فكرة تدعو لليقظة. وقد يهرول البعض متقهقرًا إلى تعريفات الشر القائلة ضمنًا باشتراط توفر سوء القصد أو اللذة السادية لكي يرقى الفعل إلى مصاف الشر. وبما أن المبحوثين في تجربة ملجرام لم يتصرفوا بسوء قصد نحو المتعلم ولم يستمدوا لذة سادية من معاناة المتعلم، فإن أفعالهم لا يمكن أن تكون شريرة، على الأقل وفقًا لهذه التعريفات المقيَّدة. إلا أن تكلفة هذه التعريفات المقيَّدة، وكما قد رأينا، تتمثل في قولها ضمنًا إن «القتلة المكتبيين» غير سيئي القصد لا يفعلون شرًا أبدًا. فإذا كنتم تعتقدون أن الأعمال المساهمة في الإبادة مساهمة غير سيئة القصد لكنها ملومة يجب إدانتها بالشر، فعليكم التمسك بتعريف أوسع وأكثر شمولًا. وقد ادعى الفيلسوف جون دوريس أن تجربة ملجرام تقدم دليلًا واضحًا على أن أحدًا منا ليس فاضل الأخلاق

(أو لا أحد منا تقريبا كذلك)، بالمعنى الذي عند أرسطو ومؤداه امتلاك شخصية صالحة عفية تجعلنا نميل إلى التصرف بشكل سليم عبر طيف واسع من البيئات. ويعارض رد فعل دوريس المتشائم آخرون عديدون، ممن يحرصون لطائفة من الأسباب على التهوين من شأن إخفاقنا في سيناريوهات ملجرام. فيدعي البعض، وبناء على أن أغلبنا من شأنه إطاعة هذا النوع من الأوامر، أن الضغط الخفيف المبذول من العلماء يعد بالفعل مبرِّئًا، ونحن لا نستحق اللوم حقًّا على ما نفعله في هذه المواقف. ويقترح البعض أن المبحوثين في تجربة ملجرام، ولأن أغلبهم شعروا بسوء مريع حيال ما كانوا يفعلونه، قد يكونون أناسًا فضلاء في نهاية المطاف. ويدعي البعض أن سيناريوهات ملجرام نادرة إلى حد التلاشي في العالم الحقيقي، ومن هنا فإن الناس العاديين ليسوا معرضين لاقتراف الخطأ الحدي في المواقف المهمة. وليس أي من هذه الاستجابات مريحًا راحة كبيرة.

وهناك على الأقل بعض الأنباء الطيبة فيما يتعلق بميلنا إلى إطاعة التعليمات التي نعرف نحن أنفسنا أنها لاأخلاقية. اكتشف ملجرام أن أغلب الناس يسرعون إسراعًا بالغًا إلى التراجع عن خيار إعطاء الصدمات بمجرد أن ينطق شخص آخر في الغرفة برأيه ويناقض العالِم أو يقترح وجوب التوجه إلى المتعلم وتفقُّد حالته. نحن نخشى الإحراج، نخشى أن نكون من يتكلم حين يبدو أن الآخرين يدرون ماذا يفعلون. ما يصعب أن نطيعه ليس رمزًا للسلطة في حد ذاته، وإنما رمز للسلطة لم يناقضه أحد. لكن هذا الخبر السعيد توازن كفته حقيقة أن الناس ينزعون بشدة إلى مسايرة سلوك مجموعة، حين يكون كل أعضاء المجموعة على وفاق، حتى إذا افتقرت المجموعة إلى رمز للسلطة. وبينما من الجائز جدًّا أن تكون سيناريوهات ملجرام نادرة في العالم الواقعي، فإن حالات اقتراف مجموعة لخطأ حدي حالات أكثر تواترًا، ومنها حالات اضطهاد الأقليات. كثيرون منا يضعفون، منجرفين مع هذا السلوك، مخالفين تقديرهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاص لما سيكون أكثر حكمة، لأنهم لا يريدون أن يكونوا مَن يخرج عن الصف. نحن، في مواجهة السلطات والجماعات الموحدة، ضعاف الإرادة على نحو منذر. لو أردنا أن نتجنب فعل الشر، فنحن بحاجة إلى اليقظة في مراقبة سلوكنا الخاص حين نكون في مواقف من هذا النوع. نحتاج إلى أن نكون أكثر استعدادًا لقول رأينا والخروج عن الصف.

كما أننا معرضون لمخاطرة فعل الشر حين تكون قدراتنا على الحكم الأخلاقي تنقصها الدقة، حين نؤمن إيمانًا باطلًا بأن من نستهدفهم يستحقون الأذى بل الإهلاك. يمكن لهذا أن يحدث حين نسقط في قبضة أيديولوجيا تشيطن خصومها الأبرياء، أيديولوجيا تقودنا إلى الحكم بأن المرتدين يستحقون أن يُرجموا حتى الموت، أو أن العاملين بالحكومة الفيدرالية هم أهداف مشروعة للتفجيرات، أو أن عاملات الجنس يصح قتلهن عقابًا لهن. يمكن لكثيرين منا أن يتعرضوا للتهييج فيدخلوا في فورة غضب انتقامية ومتعالية أخلاقيًا، ثم ينقضوا باندفاع. لكن من السهل علينا أكثر من اللازم أيضًا أن نرتكب أخطاء فكرية، ونقوم بأفعال لاأخلاقية مروعة بهدوء، ببرود، ورباطة جأش، ويقين مقزز. ما من إجابة سهلة على سؤال الطريقة المثلى لتجنب الوقوع في قبضة رؤية كونية أخلاقية يجانبها الصواب. فالتأمل والحوار والاشتباك المبدع مع الآخرين كلها أدوات مفيدة لمراجعة أحكامنا الأخلاقية. لا يمكننا التراجع كليًا عن خيار إصدار أحكام أخلاقية، ولا يجب علينا ذلك. لا بد أن نجاهد لنصوغ أحكامنا الأخلاقية بعناية، من وجهة نظر مطلعة، على أساس من الأدلة ذات الصلة.

لقد ادعيت أن الأشخاص العاديين لديهم قدرة على فعل الشر أكبر مما نحب أن نعترف به. فلو كان هذا صحيحًا، هل يعني ضمنًا أن أغلبنا أشرار؟ وفقًا للتعريف الذي قدمته في الفصل الخامس، فإن الشخص الشرير هو شخص ذو ميل قوي وثابت بشدة لارتكاب أفعال شريرة، شخص تجاوز حدود الأمل في إصلاحه. وهناك سببان يوجبان علينا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشك في ادعاء أن أغلبنا أشرار. الأول هو أن الناس العاديين ليس لديهم ميل قوي بشكل خاص لارتكاب أفعال شريرة، على الأقل في معظم المواقف. الناس العاديون لا يتحينون فرصها، ولا يقفزون إلى فعل الشر عند أهون استفزاز، مع أن كثيرين منا عرضة لارتكاب أخطاء مريعة عند التعرض لضغط. والسبب الثاني الذي يوجب علينا ألا نَخلص إلى كون أغلب الناس العاديين أشرارًا هو أننا ليس لدينا سبب وجيه للاعتقاد بأن ميولنا نحو اقتراف الخطأ يتعذر تبديلها. فالأشخاص العاديون الذين يفعلون الشر يجب ألا نشطبهم لأنهم قادرون على رؤية أنهم قد فعلوا الشيء الخاطئ، ويشعرون بالندم، ويتعلمون من أخطائهم، ويعتزمون ألا يسقطوا في ذلك الفخ ثانية. إذ نصبح مدركين سهولة خضوعنا لرموز السلطة والقطعان الغوغائية، يمكننا أن نحترس من أسوأ نزعاتنا. يمكننا أن نتحسن.

بحماسة بالغة يؤمن بعض الفلاسفة بقدرة البشر على التعلم والتحسن إلى حد رفضهم فكرة كون أي منا شريرًا. يدعي فيليب كول، مثلًا، أن كل مقترف قابل للخلاص، ومن ثم يجب ألا يعامَل أحد كقضية خاسرة. هذه العاطفة مثيرة للإعجاب من بعض النواحي. ومن الصحيح بالتأكيد أننا حين نواجه شخصًا ارتكب فعلًا مفزعًا، علينا أن نأمل في ألا تكون شخصيته ثابتة ثباتًا بلغ من المتانة حد أنه سيواصل فعل هذه الأشياء مهما حدث. عندما يعذب جندي مقاتلًا عدوًّا أسيرًا بساديّة، علينا أن نأمل ألا يكون هذا الجندي شخصًا من النوع الذي سيعامل دائمًا بوحشية من يرى فيهم العدو. علينا أن نشجع هذا الجندي على الشعور بالندم، وعلى الاعتذار، وعلى خوض إصلاح أخلاقي، وعلى أن يصبح شخصًا من النوع الذي لا يُطبِّق هذا النوع من التعذيب. علينا أن نبحث عن أدلة على انصلاحه، وعلينا أن نضع أي دليل كهذا عاملًا في تقييمنا لشخصية الجندي وفرص نجاحه المستقبلية. حين يرتكب مراهق جريمة قتل مروعة، علينا ألا نقفز إلى النتيجة التي مؤداها أن الجريمة والقتل في

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

دمه، وأنه مقدر له دائمًا إلحاق الفوضى والخراب بمن حوله، وأنه يجب احتجازه إلى الأبد. علينا أن نأمل في قدرته على الهروب من العالم الاجتماعي الذي ساهم في اقترافه الخطأ المريع، وقدرته على صقل الجانب الأفضل من شخصيته إلى الحد الذي لا يبقى عنده مصدر خطر للآخرين.

من المعقول أن تكون لدينا هذه الآمال، ويجب أن نكون مستعدين للتجاوب مع الأدلة التي تفيد بأن هذه الآمال آخذة في التحقق. ومع ذلك، أرى من الخطر الاعتقاد بأنه لا أحد شرير، وأنه لا أحد يجب شطبه. يمدنا بعض فاعلي الشر بأدلة واضحة على أنهم لا يتوبون، وأنهم يبقون ميالين بشدة إلى ارتكاب أسوأ نوع من الأخطاء أخلاقيًا، وأنهم مقاومون مقاومة عالية لأفضل محاولاتنا لقيادتهم إلى عملية إصلاح أخلاقي. يصدق هذا أحيانًا في حالة مجرمي الحرب ذوي الالتزام الأيديولوجي، الذين، على الرغم من القبض عليهم ومحاكمتهم، يتمسكون ببراءتهم والتزامهم بالقضية. بل إن أدلة العصيان أوضح في حالة بعض القتلة التسلسليين، الذين يواصلون ارتكاب جرائمهم لسنوات، بل لعقود. في عام ١٩٧٧، بعد تنفيذه سلسلة من عمليات الخطف والاغتصاب والقتل المخطط لها بعناية، سُجن تيد بندي مدانًا بالاختطاف. فهرب من محكمة بكولورادو، وبعد ستة أيام من الهروب أعيدَ القبض عليه. ولكن ما إن أصبح في السجن دبر خطة هروب أخرى. فجوع نفسه ليفقد وزنًا، وصنع فتحة في سقف زنزانته، ونجح في المرور منها ضاغطًا جسده. ولما أصبح طليق السراح من جديد، فر بندي إلى شيكاغو ومنها رأسًا إلى فلوريدا، حيث عاد وبسرعة إلى خطف النساء وقتلهن. ولم يعترف بمسؤوليته عن جرائمه إلا بعد أن كان قد أُدين. فهل شعر بأي ندم على ما كان قد اقترفه؟ كلا فيما يبدو. في عام ١٩٨١ قال بندي: «أظن أنني في موقف أحسد عليه إذ لا يتعين عليّ التعاطي مع الشعور بالذنب». فلا مجال للشك في أن هذا رجل كان ميالًا بقوة إلى تنفيذ أشنع الأخطاء. فهل كان

تيد بندي قابلًا للإصلاح؟ هل كان قابلًا للخلاص؟ أكان بإمكاننا مساعدته ليصبح شخصًا صالحًا؟ إن الانخراط في العشم والتمني على سبيل التفكير ليس دائمًا وبالضرورة ظاهرة مَرَضية، لكنني أعتقد أنه كذلك في حالتنا هذه. فقد كشف بندي من خلال أفعاله، مرة تلو الأخرى، معدنه. لقد استحق شطبه. لم يكن فاعل شر فقط وإنما شخص شرير.

وبعض فاعلي الشر نادمون، لكنهم يظهرون بسلوكهم على نحو متكرر أنهم عصاة بالرغم من ذلك. ولو كنا قد تعلمنا شيئًا من الانتهاك الجنسي المنهجي المرعب على يد كهنة الكنيسة الكاثوليكية، فهو حاجتنا إلى توخي حذر شديد عند اتخاذنا قرارًا بشأن ما إذا كنا سنثق فيمن يعترفون ويعربون عن ندمهم ويسألون المغفرة. فبعض فاعلي الشر يبدون عازمين على شق طريقهم، بغض النظر عن تصورهم لأنفسهم كآثمين عبروا منعطفًا وهم الآن في طريق الخلاص. أفضل ما يمكننا فعله في حالات كهذه هو أن نعاقب المنفذين ونقلص التهديد الذي يُعرِّضون الآخرين له، بدلًا من معاملتهم كحملان ضالة لا تحتاج إلا إلى القبول والمحبة.

الإصلاح الأخلاقي الصادق ممكن في حالة بعض فاعلي الشر، ولكن أن يتبين المراقبون متى يكون ما نراه هو الشيء الحقيقي فهذا أمر يمكن أن يبلغ درجة شديدة من الصعوبة. في عام ١٩٧٦ سُجن جاك أونترفيجر في النمسا لخنقه مارجريت تشافير، البالغة من العمر ١٨ عامًا، حتى الموت. وبينما هو في السجن بدا أنه يخوض ميلادًا أخلاقيًا جديدًا، ليكتب سيرة ذاتية وأعمالًا أخرى تفصِّل إعادة تأهيله. أصبح قضية رأي عام، إذ ضغطت مجموعة متنوعة من الروائيين والفنانين والنشطاء السياسيين لتفرج الحكومة عنه. وبعد إطلاق سراحه في عام ١٩٩٠ استمر أونترفيجر في بناء صورته الإعلامية، مقدمًا برامج تلفزيونية ومشتغلًا في الإذاعة العامة النمساوية. بل زار لوس أنجلوس بصفته صحفيًا، مكلفًا بالكتابة عن الجريمة والدعارة في الولايات المتحدة. من المأساوي أن

انصلاح أونترفيجر المروج له إعلاميًا بشدة كان خدعة. فبعد الإفراج عنه من السجن قتل إحدى عشرة امرأة أخرى، من بينهن ثلاث في لوس أنجلوس. وفي عام ١٩٩٢ ألقي القبض عليه، وفي عام ١٩٩٤ أدين وحكم عليه بالسجن مدى الحياة دون إمكانية إخلاء السبيل المشروط. وفي تلك الليلة، شنق نفسه في زنزانته، صانعًا حبلًا عقده بالطريقة نفسها التي كان قد استخدمها عند خنق ضحاياه. وفي النهاية، ومثل بندي، مدَّنا أونترفيجر بسبب وجيه للاعتقاد بأنه خارج نطاق الإصلاح. وكانت أجرأ عملياته هي إقناع كثرة بالغة من الناس بأنه حسّنت أحواله، في حين أنه بقي، حتى موته، شريرًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المراجع

١. الشر ولغزه الفلسفي

الاقتباس المنقول عن لودفيج فتجنشتاين مصدره كتابه الصادر في ١٩٥٣:

Ludwig Wittgenstein, Philosophical Investigations, trans. G. E. Anscombe, Oxford: Basil Blackwell, section 593.

تعليق فيليشيا ساندرز بشأن ديلان روف يمكن العثور عليه واردًا في مقالة كيفن ساليفان:

Kevin Sullivan, ««Evil, evil, evil as can be»: emotional testimony as Dylann Roof trial begins», The Washington Post, 7 December 2016.

تقييم يان كريستيانسن لبريفيك يمكن العثور عليه في مقالة كارل ريتر وإيان ماكدوجال:

Karl Ritter and Ian MacDougall, «Police to question mass killer Breivik again», The Independent, 28 July 2011.

<https://www.independent.co.uk/news/world/europe/police-question-mass-killer-breivik-again-2327510.html>.

يمكن العثور على ادعاء باراك أوباما في مقالة جوليان بورجر وباتريك وينتور:

Julian Borger and Patrick Wintour, «Obama vows to destroy Isis's «brand of evil» as Iraq requests help from Britain», The Guardian, 25 September 2014.

تعليق دونالد ترامب مصدره مقالة بيتر بومونت:

Peter Beaumont, «Donald Trump says 'evil losers' were behind Manchester attack», The Guardian, 23 May 2017.

تعليق توني بلير مصدره مقالة مايكل وايت وآلان ترافس ودنكان كامبل:

Michael White, Alan Travis, and Duncan Campbell, «Blair: uproot this ideology of evil», The Guardian, 14 July 2005.

<https://www.theguardian.com/politics/>.

تعليق ديفيد كاميرون مصدره مقالة له:

David Cameron, «We will defeat terrorism, and the poisonous ideology that fuels it», The Telegraph, 22 November 2015.

<https://www.telegraph.co.uk/news/uknews/defence/12010788/David-Cameron-We-will-defeat-terrorism-and-the-poisonous-ideology-that-fuels-it.html>.

دعوى بولي نلسون مصدرها كتابها:

Polly Nelson, Defending the Devil: My Story as Ted Bundy's Last Lawyer, New York: William Morrow, 1994.

التعليق الإعلامي بشأن مايرا هندلي مصدره مقالة:

«Hindley: I wish I'd been hanged», BBC News, 29 February 2000.

<http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/661139.stm>.

تعليق حنة آرنت بشأن ابتذالية الشر مصدره كتابها:

Hannah Arendt, Eichmann in Jerusalem, New York:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Penguin, 2006.

دعوى كريستوفر هتشنز بشأن الشر مصدرها مقالته:

Christopher Hitchens, «Evil», Slate, 31 December 2002.

<https://slate.com/news-and-politics/2002/12/the-necessity-of-evil.html>.

٢. الفعل الشرير في رعبه واستعصائه على الفهم

نشرت إليزابيث وارن تعليقها على تويتر بتاريخ ٢١ أبريل ٢٠١٩.

٣. الفعل الشرير ووسمه النفسي المميّز

دعاوى آرنت بشأن الشر الجذري مصدرها كتابها:

Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, London: Allen and Unwin, 1967, p. 459.

الاقتباس المنقول عن جون كيكس مصدره كتابه:

John Kekes, The Roots of Evil, Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005, p. 2.

يصف فريد ألفورد دراسته لنزلاء السجون في كتابه:

Fred Alford, What Evil Means to Us, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1997.

ويناقش روي بيريت دراسة ألفورد في ورقته البحثية:

Roy Perrett, «Evil and Human Nature», The Monist, 85.2 (2002), p. 306.

الأقسام والمقاطع المقتبسة من خطبة هملر يمكن العثور عليها في:

Jonathan Bennett, «The Conscience of Huckleberry Finn», Philosophy, 49.188 (1974), p. 128.

المقطع المقتبس من قصيدة جون ملتون، «الفردوس المفقود»، مصدره:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

John Milton, Paradise Lost, Book I, 159-62.

الاقتباس المنقول من «اعترافات» أوغسطين مصدره:

Augustine, Confessions, Book 2, IV.

تعليقات كليفورد أولسن منقولة في كتاب مايكل ستون:

Michael Stone, The Anatomy of Evil, New York: Prometheus Books, 2009, p. 350.

٤. ابتذالية الشر

الاقتباس المنقول من كتاب آرنت «أصول الشمولية» مصدره:

Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, London: Allen and Unwin, 1967, p. 459.

الاقتباسات المنقولة من كتاب آرنت «أيخمان في أورشليم» مصدرها:

Hannah Arendt, Eichmann in Jerusalem, New York: Penguin, 2006, p. 276, p. 276, pp. 287-8, p. 288, and p. 252.

الاقتباس اللاحق الذي تقارن فيه آرنت الشر بفطر مصدره كتابها:

Hannah Arendt, The Jew as Pariah, New York: Grove, 1978, p. 251.

الاقتباس المنقول من مناشدة أيخمان للعفو عنه يمكن العثور عليه في مقالة إيزابل كيرشنر:

Isabel Kershner, «Pardon Plea by Adolf Eichmann, Nazi War Criminal, is Made Public», The New York Times, 27 January 2016.

دعوى وارد تشرشل بشأن «الأيخمانات الصغار» يمكن العثور عليها في:

Ward Churchill, On the Justice of Roosting Chickens: Reflections on the Consequences of U. S. Imperial Arrogance and Criminality, New York: AK Press, 2003.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

تعليق رون روزنباوم مصدره مقالته:

Ron Rosenbaum, «The Evil of Banality», Slate, 30 October 2009.

<https://slate.com/human-interest/2009/10/troubling-new-revelations-about-arendt-and-heidegger.html>.

ادعاءات أيخمان مقتبسة في كتاب ديفيد سيزاراني:

David Cesarani, Becoming Eichmann: Rethinking the Life, Crimes, and Trial of a «Desk Murderer», London: De Capo Press, 2004, p. 300 and p. 360.

الاقتباسات المنقولة عن كلوديا كارد يمكن العثور عليها في كتابها:

Claudia Card, The Atrocity Paradigm, New York: Oxford University Press, 2002, p. 9 and p. 3.

٦. هل أنت شرير؟ هل أي منا شرير؟

اقتباس تيد بندي مصدره كتاب ستيفن ميشو وهيو آينزورث:

Stephen Michaud and Hugh Aynesworth, The Only Living Witness: The True Story of Serial Sex Killer Ted Bundy, Irving, Texas: Authorlink Press, 1999, p. 281.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner